

غورکي

حادث فوق العادة

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الاولى

١٩٥٤/٦

الأهداء

الى الذين ينظرون الى ما في الحياة من احداث عادية
فيها وحشية وعبودية
فيسعون الى خلق احداث فوق العادة
فيها انسانية وحرية

أهدي هذا الكتاب

حـمـص ١ / ٥ / ١٩٥٤

عبد المعين الملوحي

المقدمة

ليست الترجمة تجارة ، وما كان ينبغي لها ان تكون كذلك .
انها قبل كل شيء ان يجد المترجم فيما يقرأ نصيباً من الحق والخير
والجمال ، وان يحب هذا المؤلف ويحترمه ، لانه استطاع ان ينير
عقله بقبس من الحق ، وان يدفع يده الى القيام بعمل من اعمال الخير ،
وان يغمر قلبه بفيض من الجمال ، ثم ان يجد في نفسه رغبة جاححة في
أن يشاركه اخوانه وابناء وطنه في التمتع بما قرأ ، فينقل الى لغتهم
هذا الكتاب .

وأما أن نترجم لان في الترجمة ربحاً ، ولان لهذا النوع او ذاك
من الكتب رواجاً في السوق فتلك جريمة شنعاء يرتكبها المرتزقة
فيهينون المثل العليا التي دافع عنها المؤلفون من فلاسفة وعلماء وأدباء
وشعراء ، هذه المثل التي اضطهدوا في سبيلها فزجوا في غيابات السجون ،
ونفوا الى اقاصي الارض ، وعلقوا على حبال المشانق .

وليست الترجمة عبثاً ولهواً ، وما كان ينبغي لها ان تكون
كذلك .

انها في الدرجة الثانية فن له قواعده وأصوله ، فهي تتطلب من المترجم فهماً كاملاً للنص المترجم ، وحرصاً تاماً على اداء ما فيه ، واخلاصاً شديداً في ان ينقل الى لغته نقلاً دقيقاً صحيحاً كل ما اودع فيه المؤلف من افكار وآراء وعواطف .

وليس يجوز للمترجم ان ينتزع من الكتاب ما يريده هو مسموحاً لا ما يريده الكاتب كاملاً ، وليس يجوز له ان يجعل مثلاً من الرواية ذات اللحم والدم والحياة هيكلًا عظمياً تتراكم فيه الحوادث عارية ليس يكسوها لحم ، وليس يجري فيها دم ، وليس تنبض فيها حياة . وليس يجوز له ان يتساهل فيما لم يفهمه ، وان يحور فيما فهمه ولم ينل رضاه ، وانما ترجمة الكتاب أمانة في عنق المترجم يجب ان يؤديها للمؤلف كاملة غير منقوصة فان لم يؤديها حق الاداء كان لها خائناً . وليس يجوز للمترجم أن يجعل الترجمة أقل من الاصل صحة لغة ، وسلامة تركيب ، وصفاء أسلوب ، ولا سيما اذا كان الكتاب أدبياً ، فهو آئذ يحتاج اسلوباً محكماً يساوي او على القليل يقارب ، ان كانت المساواة غير ممكنة ، وانها لكذلك ، الاسلوب الذي ادى به المؤلف افكاره وعواطفه ، فالاغلاط اللغوية تشوه الافكار ، والركاكة تقتلها وتمتص كل ما فيها من نسغ الحياة ، فيبدو الكتاب جيفة انتزعت منها الروح ، او طيفا ليس له جسد ، وكلاهما لا يوحى الى النفس انه حي .

تلك كلمة أملاها علي احساسي العميق بواجبي ، وحيي الجارف للكاتب العالمي العظيم مكسيم غوركي ، فقد كثرت الكتب التي ترجمت له ولكنني وجدت في كثير منها ويا للأسف رغبة في التجارة

بهذا الانسان وهو لعمرى انسان طالما حارب هذه التجارة
القدرة ، ثم لم يمت الا بعد ان الغاها الغاء وانتصر عليها انتصاراً ، فمن
الجريمة ان نجعله نحن مادة لتجارتنا .

وأنا أهيب بكل انسان شريف يحب غوركي ، ويخلص لمثله العليا
التي أخلص لها ، ويريد ان ينصرها كما نصرها ، الا ينشر والا يعين
على نشر ما يشوه هذا الكاتب العظيم ويسيء اليه .

لقد عاهدت نفسي على ان أنشر مؤلفات مكسيم غوركي كاملة و
أنا ماض في تنفيذ هذا العهد ، وهذا الكتاب الذي بين ايدي القراء
ثالث كتب ثلاثة نشرتها له ، أما الكتاب الاول فهو « ذكريات
حياتي الادبية » وقد طبعته في مصر ، وأما الكتاب الثاني فهو :
« المنشردون » وقد طبعته في حمص ، وأعيد عهدي بنشر مؤلفاته
الكاملة كما ترجمتها ، ما نشره غوري منها وما لم ينشره ، ولقد سعت
وأرجو ان يرى الناس جميعا ما سعت اليه من ان تكون الترجمة
أمانة صادقة اولا وان تكون عربية مينة سليمة ثانيا ، ولئن أسفت
على شيء فأسفي اني لا انقل مؤلفات غوركي عن لغة غوركي وانما
انقلها عن اللغة الفرنسية .

ولنحل الآن ، بعد هذه المقدمة ، التي اعتقد انها واجب مؤكد ،
هذا الكتاب الذي بين ايدينا تحليلاً موجزاً .

طالما تحكمت بالانسان حوادث الحياة اليومية العادية حتى كادت
تحوله الى آلة او الى حيوان ، ولكنها على ما فيها من مأس و كوارث
لم تقض ولا يمكن ان تقضي على العناصر الانسانية فيه :

النهر يجري في مجراه هادئاً ساكناً ، والحياة يريد لها اعداؤها

واعداؤنا ان تمشي في مثل مجرى ذلك النهر هدوءاً وسكوناً ، ولكن
النهر لا يلبث ان يفيض ويشور ، ولكن الحياة لا تلبث ان تنتفض
وتتسع ، واذا بالنهر يحمل الى المروج من حوله الخصب والخضرة
ويحمل اليها مع الخصب والخضرة شيئاً من الدمار والخراب ، واذا
بالانسانية وهي اوسع من النهر مجرى ، وابعد عمقاً ، تثور على
« رتبة » الحياة وعاديتها تلك الرتبة القاتلة ، وهذه العادية المجرمة ،
واذا بها تنبض بعناصر التجدد والانطلاق ، هذا التجدد المنعش
وهذا الانطلاق الخالد ، واذا بها تقلب ما في حياتها من عادية وغطية
الى خوارق وحوادث فوق العادة ، واذا باولئك الذين اضطهدوا
وعذبوا يصبحون وقد نفضوا عن كواهلهم القوية الفتية اثقال
العبودية وكسروا عن اعناقهم الدامية قيود الذل والظلم
بايديهم الحديدية ، لتنتقل الى الابداع والانشاء :

« ها هي ذي الريح تمزق حجب الغيوم الكثيفة ، وها هو ذا شعاع
الشمس يسطع في زرقة السماء ، وها هي ذي هذه البهائم الممرح
تستقبلها بصرخة واحدة وهي تقتل شواربها فوق اشداقها الطيبة .
أي انسان يستطيع ان يمنع نفسه من ضم هذه الحيوانات ، ذوات
القائمين ، ومن تقيلها ؟ انها حيوانات ذكية فيما تعمل ، ماهرة فيما
تصنع ، وانها لتغرق في العمل حتى تنسى نفسها . وهل يستطيع شيء
في الوجود ان يقاوم هذه الطاقة من العمل الذي بدأ ، وهذه الفورة
من القوة التي تفتحت راضية مطمئنة ؟ انها قادرة على خلق المعجزات ،
قادرة على ان تهب ، في ليلة واحدة ، للأرض كلها ما يملؤها قصوراً
رائعة ومدناً زاهية زاهرة تحجل منها القصور والمدن التي ورد

ذكرها في الاساطير . » (١)

ومكسيم غوركي في كتابه هذا يقص علينا انباء تلك الانطلاقة الى المجد والحرية ، واخبار تلك الثورة التي اشتعلت نيرانها في بلاده فنقلتها من جسيم الذل والجهل والفقر والمرض الى نعيم العزة والعلم والثروة والعافية .

وتألف هذه المجموعة من حادثتين خارقتين ، فوق العادة :

١ — حادث فوق العادة .

٢ — حكاية .

أما القصة الاولى وعنوانها كما رأيت عنوان الكتاب نفسه فتمثل لنا في شخصية رجل ساذج ولكنه ذكي تلك القوى التي تنازعت الشعب في روسيا خلال عشرين عاماً قبل الثورة تقريباً ، واراد بعضها ان يحيد به عن الصراط المستقيم ، ولكنه في كل مرة كان يفهم ويمشي في طريقه حتى بلغ آخر مراحلها .

ويصور غوركي جانباً من ذلك الصراع الدموي الجبار الذي نشب خلال الثورة وانتهى الى نصرها نصراً مؤزراً .

وفي القصة الثانية يبرز لنا شخصيتين :

١ — شخصية شاب يحترق ثروة عمه الضخمة التي سوف يرثها حتماً ليكون قائداً من قواد الثورة على لصوص الثروة ، وليحارب بيده ،

(١) ذكريات حياتي الادبية ، غوركي ، دار القلم ، ١٩٥٤

وليجعل من دار عمه حصناً يحتمي وراءه في الدفاع عن حقه في التفكير
الحر لا في ارث مال عمه .

٢ — وشخصية كهل لم يتزوج وله ثروة كبيرة ، وهو مريض
مهدد بالموت ، ولكنه يأبى ان يموت ، ويأبى ان يقبل وراثة ابن
اخيه له ، ويأبى ان يصدق ان ابن اخيه يحتقر ثروته ولا يبالي بها ،
وهو قد تنبسط نفسه ونرى فيه ظلاً من ظلال الانسانية لا يلبث ان
يتقلص عندما تهدد الثروة ثروته التي سوف يتركها حتماً بين ساعة
واخرى ليصبح وحشاً ضارياً يدل الجند على مكان ابن اخيه ليقتلوه .
وسنرى في القصة نتائج هذا الصراع .

والقصتين بعد ذلك تعطينا جوانب مختلفة من المعجزات ،
هذه المعجزات الانسانية الحاضرة التي تذكرنا بالمعجزات الالهية
الماضية ، هذه المعجزات التي تكتسح العالم اليوم قطراً بعد قطر لتنشر
على هذه الارض الجميلة العريضة التي اثختها الجراح وغسلتها الدماء
راية العدل والسلام والحرية .

حس ١ / ٩ / ١٩٥٣

عبد المعين الملوحي

حادث فوق العادة

في قصر من تلك القصور ، قصور الامراء الممتدة على ضفاف
« النيفا » ، وفي غرفة من ذلك القصر مرقشة ، على الطراز « المراكشي » ،
قدرة ، متجهة باردة ، جلس يتزوج على كرسيه ، وقد ارتدى ثوباً
رمادياً من ثياب الجنود .

كان قد جاوز الاربعين من عمره ، ربعة ، صلب العود ، وكانت
رجله اليسرى عرجاء فهو يمدّها مدّاً ، ويضع رجله اليمنى على الارض
في قوة .

وجلس يتحدث فاذا بلغ المقاطع الحساسة في حديثه ضرب الارض
بعقبه العريض كأنها هو حصان يضرب الارض بسنابكه ، وتشعثت
على رأسه شعرات يابسات ، لونها لون الحاء الزيزفون ، ونجمت على
عارضيه وذقنه هنا وهناك خصلات نجيّة من شعر اصفر ضئيل ،
وانتصب تحت انفه المزعج شاربان محفوفان ، من يرها يتذكر فرشة
أسنان عتيقة مهترئة .

ليس في وجه هذا الرجل ذي الشدق الواسع الذي تملؤه أسنان

قوية صلابة ما يلفت النظر ، ولكنه وجه مثل تلك الوجوه التي تشبه وجوه السمك ، قائمة ، حادة ، ذات عيون ليس لها لون معين ، تلك الوجوه التي تنتشر في المقاطعات الوسطى من روسيا ، وتضيء هذه الوجوه في الغالب عيون صغيرة تتطلع حيناً الى السماء ، وتحقق حيناً في الارض ، ولا تنظر اليك حين تحاورها الا شزراً . وانك لتشعر في نظراتها هذه بشيء لا تحدده من رياء روحي ، ومن سوء ظن بالناس جميعاً أو حاد الى صاحبها طول ما قاسى من خداع الناس له ، ومكرهم به . وربما برقت احياناً في اعماق هذه العيون حدة باردة تنعس فجأة في نفس من يراها كأنها ابرة تنعس في القماش ، فتكشف عن ذكاء وقاد يواريه صاحبه في مهارة وحذر .

ولقد أيقظت في نفسي هذه اللمعة الحادة في نظره رغبة «ديوجين» ، هذه الرغبة التي يتميز بها الاديب . واستطعت اخيراً ان انتزع من هذا الرجل ، ذي الاسنان الصلدة ، قصة حياته .

اذن فها هو ذا يقص القصص غير معجل . ينتزع الكلمات واحدة بعد واحدة . ويصمت قليلاً لأفهم انه يعرف ما في حديثه من قيمة . ولأفهم مرة اخرى انه يعرف انه طالما ادهش من استمع الى حديثه قبلي . ولربما غالى في تبججه هذا ، فرنت الوقاحة في حديثه لحظات ، واهتزت شعرات شاربيه ، وبدت تحتها شفة تلتوي التواء مضحكاً ، فاذا أصبح حديثه مكفهرأ حزيناً تغضنت أسارير جبينه ، وبرقت عيناه بريرة رطباً غريباً ، واتسعت حدقتاه فما تدري عند ذلك أهو خائف مذعور أم متعجب مستغرب .

كان لا يزال يشبث قدمه ، ويوالي ترججه وانه لترجح ساء ما

لألم مقاطع قصته المحكمة ، أما يداه القاتمتان فكانتا تضربان ركبتيه
 ضربات قلقة ، ثم تنقلان ما على المنضدة من الاوراق والدواة والمرملة
 من مكان الى مكان . ثم تلمسان الريشة الخشبية . ثم لا تكادان
 تستقران قليلا ، حتى ينظر الى ما غير من مواضع هذه الاشياء ،
 وعيناه مغمضتان ، فيبدأ عمله من جديد ويغير مواضعها مرة اخرى ،
 واذا به بعد ذلك يدفع دفعا هذه الاشياء جميعاً في غيظ ظاهر ،
 ويهملها اهمالا ، ويمد يده الى الحائط المرقش فيقشره باصابعه ، او
 يحك ألوانه المذهبة والحمر والزرق او يحث جصه ونقوشه العربية المعقدة .
 ولقد خيل الي انه يضيق ذرعاً بهذه الغرفة الشاذة . فهو يتقصى
 نظره من النافذة التي قطعها ظلال الشعرية المقرنة ، دقيقتين او ثلاث
 دقائق ، صامتاً ، يلوي رأسه ، ويقيم عنقه ، باحثاً عن شيء ما فوق
 تلك الصفحة العريضة التي يخطها نهر النيفا المقفر . وربما رأيته وهو
 يحل أزراره ثم يعقدها كأنها يريد ان يخلع ثيابه ليتخلص من ثقل
 خارجي يرهق جلده وتنوء به عظامه .
 أما صوته فكان أجش يأتيك من مكان بعيد كأنما هو يخرج
 من أعماق صدره .

قال :

— أقت في سيبيريا ، واوراق هويتي منها ، ولكنني ولدت في
 روسيا ، ببلدة سافاتما . وسافاتما هذه في مقاطعة ريازن . ولقد ورثت
 اسم سافاتما من ابوي كليهما اللذين طالما رددوا على مسامعي : نحن من
 اهل سافاتما . وهكذا ظلمت حتى بلغت السابعة عشرة من عمري لا
 الفظ اسم هذا البلد سافاتما بل ساماتما . وكنت اعتقد انه نهر اسود

سواداً ليس له مثيل . ولذلك فلم أحدث عنه أحداً ، حتى رفاقي
الصغار ، ولم افتخر به ابداً . ولعلي كنت أستحي من ذكره .
وكيف أذكر هذا النهر الأسود وانهار سييرا صافية لامعة ! ؟
وأخيراً سمعني تاجر آلات زراعية أقول ساماتما فأصلح خطي وقال
لي في غلظة وجفاء :

— أيها الغبي ، انها سافاتما وليست ساماتما . وهي ليست نهراً
ولكنها مدينة ، بل هي مقاطعة ..
وصدقته رأساً . وسرني ان سافاتما هذه ليس فيها شيء خارق
للعادة .

لست اذكر قريتي ، فهي قرية عادية ، ولا شك ، ولكنني
لا ازال اذكر بلداً آخر يقع على هضبة تطل على نهر ، ومن وراء
هذا البلد دير في مركز نصف دائرة من الغابات . وهذا البلد ، ولا
يزال يمثل في خاطري ، ليس بلداً وانما هو ألعبوبة من الألعاب فيها
الألعاب كثيرة مثلها : بيوتها الصغيرة ، وكنيستها القميئة ،
ومواشيها : كلها قدت من الخشب ، اما اشجارها فطحلب اخضر .
أحببت في طفولتي هذا البلد ، وحين هاجرنا الى سييرا ، وكنت
في العاشرة من عمري ، فقدت امي واخي الصغير خلال الهجرة ، سقطا
من القاطرة فماتا ، ولحقهما ابي بعد قليل صدفة : أكل كثيراً من
السك ، فمات .

وطوفت في القرى اتسول في صحبة عجوز صغير . كان هادئاً
رصيناً لم يضربني ابداً . وبقينا رفيقين سنة أو تسكاد . وبينما نحن في
سوق مدينة صغيرة رأني ترفيم بوييف ، وهو فلاح عجوز ، يدفع

لصاحبي العجوز روبلا واحداً واتخذني خادماً .

كان سيدي الجديد ضعفاً شرساً ، يجمع بين الشره والتقوى .
كان من أولئك الذين يعيشون زوراً وبهتاناً : من أولئك الذين
يظنون انهم اوصياء عليك ، موكلون بك ، وان عليهم ان يؤدوا
الى الله حساباً عن اعمالك انت ، اما هم فلا يؤدون عن انفسهم حساباً
ولا يبالون بمعصية ولا إثمًا . ومن اجل ذلك فهم يكتسبون انفاسك
ويعدونها عليك ، اما هم فيشخرون شخيراً .

كرهته مباشرة . كرهته وكرهت اهله لانهم جميعاً قساة غلاظ
الاكباد ، جشعون يطمعون في كل شيء ... ولقد فهمت منذ طفولتي
ما في العمل الذي يجاوز طاقة الانسان من وحشية وظلم ، ومن
مناقضة للعقل والمنطق : كان لهذا الفلاح العجوز عشرة افراس ،
وسبع عشرة بقرة ، وثور ، وغنم ، ودواجن . كان له كل ما يكفي
حاجته ويفيض عن حاجته ، ومع ذلك فقد كان يشتغل هو ، ويرغم
الناس على العمل ، كأننا هم جميعاً مساجين حكم عليهم بالاشغال الشاقة
المؤبدة ..

كانوا يأكلون في كراهية ، فاذا شبعوا واكتظوا اكلوا وهم
شباع ، فاذا اصبخوا حمر الوجوه من الشراب ، قب البطون من
الطعام ، لم يزالوا يأكلون ويقضمون ويتعبون . عمل كثير وطعام
كثير : هذا هو سر وجودهم وكنه حياتهم .

فاذا حلت أيام الاعياد لبسوا ثيابهم ومضوا زرافات الى الكنيسة
وتقع على بعد اثني عشر فرسخاً من بلدنا .

أما أسرته فكانت كثيرة العدد : هو رب الاسرة واولاده

الثلاثة من زوجه الاولى ، واحد منهم جندي ، و كنتان ، وصهر له
 زوجه ، وكان اخرس سقط من عجلة فقطع لسانه ، وابنة اصغر مني بستين ،
 تدعى « ليوبا » ، وهي من زوجته الثانية التي كانت بهيمة حقاً ، عينا فرس وقوة
 رجل . وهنالك عامل روسي يدعى مكسيم ، وانه لمحب للنوم عظيم : كان ينام
 وهو واقف ، ونساء عجائز كثيرات كانهن السعالى أو كانهن الجرذان .
 وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري غرز مكسيم المذراة في
 وركي مخطئاً غير متعمد ، ومضت سنة ووركي يؤلمني ، ثم جعل ينز
 صديداً وقيحاً ثم جعلت اعرج ، وعند ذلك فطن سيرج الى مشيتي ،
 وقال لابيه ونحن نتعشى :

— ان يعقوب يحرق رجله جراً ، وعلينا ان نغنى بها .

وقال له ابوه :

— ستشفى رجله دون علاج . واذا لم تشف فذلك خير لنا ،

فسيكون اعرج ، واذا يعفى من الخدمة العسكرية .

كذلك انتهى الامر عندهم ، أما انا فقد ازعجني هذا النبأ وآذاني :

كنت فتى قوي البنيان ، وكنت اذا مررت بالصبايا وانا اعرج

خجلت ، وكن يسخرن مني ، وعند ذلك قررت ان اغادر منزل

بوييف ، وفاتحت في امري « ليوبا » فقالت لي وهي ناصحة مشفقة :

— سافر .. سافر والافتكون جهداً ورهقاً . ألا تراهم جميعاً

قد حكم عليهم بالهلاك ؟

كانت « ليوبا » صبية حزينة سقيمة البدن ، حتى انها لم تكن

تستطيع ان تمخض السمن . وكانت لي صديقة وفية : علمتني القراءة

قسراً . وكانوا لا يحبونها فيسخرن بي وبها ويقولون :

— ما احسن هذا الخطيب الاعرج !

أما هي فلم يخطر لها ذلك كله في بال . كانت تساعدني على احتمال أعباء الحياة هكذا في بساطة وسذاجة ، وكانت نقية طيبة ، تكره توافه الامور ، عيناها كبيرتان مثل عيني امها ، ولكن فيهما لألاء ونوراً ، وكانت ضامرة نحيفة . كانت قل ان تضحك ، فاذا ابتسمت قليلاً شعرت اني خفيف كالصغور طروب كالطفل ، وكانت كذلك لا تبكي ، فاذا ضربوها انكمشت على ذاتها ، وتضاءلت اعضاؤها ، وهي ترتجف وتغص عينيها . كانت اكثر من في الاسرة ذكاء ، ومع ذلك فقد كانوا يعدونها بلهاء . ولكنها كانت قاسية ايضاً : تحب تعذيب صغار الحيوان من كلاب وقطط ويسرها على الخصوص ان تخنق الفرايرج فتمسك بواحد منها وتخنقه بيديها .

سألها ذات مرة :

— لم تفعلين هذا ؟

فلم تجبني ، وهزت كتفيها . وظني انها كانت تجد في هذا العمل ما تفرج به عن غيظها وحقدتها على الناس ، وما تنتقم به لنفسها من خبثهم وقسوتهم عليها .

ودعتها في الربيع وسافرت . وحاول بوييف ان يمنعني ، وحجب عني جواز سفري ثم سامنيه وساعدتني في استعادته ليوبا . طوفت في الآفاق سنتين دون ان ألتى حادثاً ، ولست اجد ما اتحدث به عن ذلك العهد . عشت في بلدة بارناؤول عند طبيب شفى ساقى وترك لي عرجي ، وحدثت نفسي قائلاً :

« سأعيش حتى ابلغ العشرين من عمري وانا نائم ، لا اريد ان أرى

حادثاً فوق العادة» .

وربما تذكرت البلد في غمرة من غمرات الضجر وفكرت :

« هناك يجب ان اعيش »

ولكنني لم اكن اعرف اين يقوم ذلك البلد ، ثم نسيت ، ولكنني لم انس « ليوبا » ، لقد أرسلت اليها ذات يوم كتاباً فلم ترد علي .

عشت عند الدكتور « الكسندر سيريلوفتش » هادى البال ، قليل من العمل ، اقطع الحطب ، اشعل المدفأة ، اساعد الطباخة ، انظف الاحذية والسياب ، ارافقه الى المرضى .

ولم يكن الدكتور معاقراً للخمر : كأس او كأسان ، من حين الى حين ، طلباً للصحة ..

قامرت في حذر ، واجبتني النساء هكذا مجاناً ، واغلقت نفسي فنظر الي الناس نظرهم الى غبي ، وجمعت مالا .

وفجأة ها انذا اتدحرج من قمة جبل شاهق ، وهاهي ذي حوادث فوق العادة فريدة خارقة تعترض طريق حياتي الهائلة الوادعة :

قتل في جوار منزلنا رجل وامرأة ، ولم أبت تلك الليلة في المنزل ، فالقي علي القبض ، وظهر أن جواز سفري ليس اصولياً ، وان أحرفه فيها تبديل ، فقد كتب اسمي فيه « يعقوب جازيكوف » مع ان اسمي الحقيقي « يعقوب زيكوف » .

و كأن الاقدار أرادت أن تعبت بي فاندلعت نيران الحرب اليابانية نكابة بي ، وقال لي المستنطق :

— انت تعترف ان جوازك هذا ليس فيه اسمك ، اذن فأنت تحاول الفرار من الخدمة العسكرية ، ومن يدري ؟ ربما أردت

أمراً أكثر من هذا خبثاً وشرّاً .

وبينت له ان العلامات الفارقة في الجواز تثبت اني اعرج ،
وانها ، بالتالي ، تنطبق علي انطباقاً تاماً أنا يعقوب زيكوف
ولكن ليس في سييريا أحد من الناس يصدقه احد من الناس .
واخيراً قال المستنطق :

— ربما كنت بريئاً من الجريمة ، ولكن يجب ان احقق في أمرك .
كان الدكتور غائباً في تومسك وقازان ، وليس لي من يعبا بي .
ألقيت في غيابة السجن ، وجعل اللصوص يسخرون مني ويقولون :
— ليس اسمك جازيكوف كما هو مذكور في الجواز ، وليس
اسمك زيكوف كما تدعي انت ، ولكن اسمك الحقيقي « جازيف » .
لان شذوك هذا شذوق سمكة .

ومنذئذ لم ينادوني الا باسم « جازيف » . تلك الحماقة فوق العادة
أزعجتني حتى لم استطع الى النوم سبيلاً طوال ليلتي الاولى في السجن
وظلمت اسائل نفسي :

— أمن المعقول ان يترك انسان من بني آدم ينفق كما تنفق
البهيمة لان في الورقة غلطة قلم ليست ذات قيمة ؟
وشكوت الى الله امري ، فقد كنت في ذلك العهد مرءئناً تقياً ،
ومع ذلك فلم أصل في السجن لان الناس فيه يسخرون من المصلين
والمؤمنين ، ولذا فقد كنت اقتصر على رسم الصليب فوق صدري
في الخفاء حين أستلقي في فراشي ، ثم اتلو ورداً أو وردين .
اما قبل ان اسجن فقد كنت اصلي في حماسة وانا راكع ،

(١) السمك في الروسية .

وأقرأ « قانون الايمان » مرة و ابانا مرة و « العذراء مريم » ثلاث مرات ، و كنت احفظ هذه الاوراد جميعاً عن ظهر قلب ، فقد علمتني « ليوبا » اموراً كثيرة ، حتى اني بدأت اكتب بالخرز على قشر الشجر .

نعم ان الايمان غباء ، ولكنني كنت في ذلك العهد شاباً لا يشغلني الا الله .

كان معي في زمراتي سبعة مساجين : اربعة من سارقي الخيل ، و مسلول محتق ، و عجوز متشرد ، و صانع اقفال في سكة الحديد مر بنا في مرحلة من مراحل طريقه الى روسيا . اما اللصوص فكانوا يتضون سحابة نهارهم وهم يقامرون ، و يغنون ، و اما الشيخ المتشرد و صانع الاقفال فقد اتحميا ناحية يتناقشان ويتجادلان جدالاً لا ينقطع ، و الشيخ قبيح جداً : طال حتى كأنه العود ، و طال شعره حتى كأنه فروة خوري ، و انقلب انفه رأساً على عقب ، و قست عيناه في خبث و مكر ، و مع ذلك فقد كان اكثرنا عناية بهندامه : يستيقظ قبل الناس جميعاً ، فيغسل وجهه بخرقه نظيفة ، و يمشط شعر رأسه و لحيته ، و يزرر كل زر في ثيابه ، و يظل واقفاً و هو يصلي لا يتم ولا يشير ، و لا ينظر الى الايقونة في زاوية الحجرة ، ولكن الى النور من خلال النافذة الى السماء . كان مريداً من اصحاب الطرق ولكنه مريد ذكي ؟ اما صانع الاقفال فكان اسود كالعجري او اليهودي ، يكبرني عشر سنين ، ثرثار مدهش ، حديثه فوق العادة لا تحب ان تسمعه ، شعره كأنه شعر قنفذ ، اسنانه لامعة كأسنان الزنوج ، شارباه اسودان صغيران ، و عيناه مثل عيون سكاك الكرغيز ،

لكأنه كان مطلياً كله مثل ذلك « الفقم » العالم الذي يظهر على
المسارح ، ويزيد عليه انه لا ينقطع عن الصغير .

وسمعت العجوز يتم ، واللصوص نائمون :

— علينا بالبساطة . ان الناس يتيهون في امور كلها عبث لا طائل

تحتة ، وهم من اجلها يسحق بعضهم بعضاً . علينا ان نجعل الحياة بسيطة .

وصانع الاقفال يدمدم في غيظ :

— وهذا ما اراه !

— كلا ثم كلا ، انك تعبد ما كان ، ولست وحيداً فيما تعبد .

انكم تكذبون جميعاً ، وانت تكذب ايضاً ، انك تريد ان تكون

فذاً ، فوق العادة ، مستعلياً على الناس ، مستاثراً ، وكل ما في الحياة

من شقاء سببه ان كلا منا يريد ان يكون ذا تميز ، وهنا منبع الالم ،

ومن هنا تنساب افاعي السيطرة والتحكم والارهاب ، وهاهنا يكمن

كل ما في الغذاء والكساء وسائر حاجات الناس من تفریط وافراط .

وكل هذا ينبغي لنا ان نقضي عليه قضاء مبرماً . اسمعت ؟ حيث

تكون الخصوصيات تكون السلطة ، وحيث تكون السلطة يكون

العدوان والمحابة والجنون على اختلاف فنونه . انكم ايها الناس

لتنفانون وتتعادون في سبيل هذا التخصص ، فيا لكم من مجانين !

الانسان لا يملك الا ذاته ، وعليه الا يملك الا ذاته ، عليه الا يملك

الناس ، ولا يملك شيئاً دون الناس . ألا تراهم ألصقوا على ظهرك

جزازة من ورق ، ثم هاهم اولئك يقذفونك حيث يشاؤون ، وانت

لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً ولا عملاً ولا سروراً .

فهمت فهما مطلقا كل ما كان الشيخ يقوله : كانت كلماته هذه

هي الكلمات التي اختلجت في نفسي ثم جمجمت على لساني ، واذا كانت الحقيقة تكمن في ذاك أعدت لكل سؤال جواباً ، انها لكثيفة كثافة تستطيع معها ان تمسك بها امساكاً .

وسخر اللصوص مني ، وظنوا اني غبي ، ولست الا متغابياً . انك حين تتغابي تكون اكثر هدوءاً وطمأنينة ، واكثر مقدرة على معرفة الناس ، فهم لا يكثرثون بالاغبياء ولذلك فهم يرسلون انفسهم على سجيتهما امامهم . وهكذا نظر الي هذان المتحاوران الدائنان نظرتهم الى لا شيء ، فكانا لا يكفان عن الوشوشة في غيظ ، وكنت لا أكف عن الاصغاء اليهما في اهتمام .

ولم أجد ، على ما فهمت ، ما يدعوهما الى النزاع ، بل رأيت انها كانا على وفاق :

— علينا ان نجعل الناس متساوين ، وان نقضي على كل تميز وتفرد ، ولو فعلنا ذلك لاصبح الناس جميعاً ، شاءوا أم ابوا ، اخواناً على سرر متقابلين ، ولا صبحت كل الحياة يسيرة لينة . علينا ان نجعل الناس جميعاً كما يكون الناس جميعاً عادة ، اما الطبقات — الكهنة والتجار والموظفون — اما السادة على العموم ، فيجب ان نقضي عليهم قضاء وان نلغيهم الغاء ، يجب ان لا يكون فوق الارض رجل واحد يستطيع ان يشتري خبزي وعملي وضميري .

قال الشيخ :

— علينا ان نهب الاجنحة للروح ، لتطير حيث تشاء ، ولولا الحرية الروحية لما كان الانسان .

كنت اشرب هذه الافكار كما يشرب المتعب كأساً من الخمر

المنعشة ، واشعر عندئذ ان روحي تثبت لها ، في الواقع ، اجنحة
من نور .

وقلت في نفسي : « تباركت ايها السيد المسيح . ما اطهر البساطة
في الناس ، وهم مع ذلك يعيشون في غمرة من الآلام . »
كنت أفكر في ذلك كله ، وابتسم لذلك كله ، واللصوص
يسخرون مني وتردد سخريتهم ويصيحون :

— انظروا ، انظروا ، هذا جازيف يحلم بخطيبته .

فأسكت ولا اجيب ، وأمعن في التغابي ، وأصغي ثم أصغي الى
ذنيك المتحاورين فلا اجد انها يفترقان الا في نقطة واحدة : أما
صانع الاقفال فيزعم ان الله — عز وجل — ليست له ضرورة ،
وليس فيه نفع ، فكان العجوز يشور ويغضب ، وكنت انا أغضب
واتألم لما في حديث صانع الاقفال من غلظة وفضاظة ، لقد كان الله
في ذلك العهد نقطة حساسة في نفسي .

ولم ألبث ان ساقني الدرك الى البلد الذي فيه قيدي ، واكدت
اسرة بوييف هويتي ، ورأيت ربه يموت على فراشه ، وقد رفسه
حصان ، فقال لي :

— لا تتركنا يا يعقوب ، فانت هادئ ساذج ، ولم تخلق
لتكون متشرداً .

ولم أقبل عرضه ، فلقد رأيت منذ اليوم اموراً غير قليلة وتغلغلت
في عقلي افكار ، واطبطني المدينة ، ونصحتني ليوبا فقالت لي :
— سافر يا يعقوب . سافر ونقب عن سعادتك .

وقصصت عليها اخباري وافكاري ، وقضيت ليلتي كلها وانا
احدثها ، وادهشني ما رأيت في افكاري من تماسك وما في مسيرها
من نظام وتناسق ، وليوبا تقول :

— صحيح ... صحيح ...

وقلت لها : تعالي معي يا ليوبا .

فخافت وقالت :

— وما عساني أنفعلك ؟ لبست الا عبئاً يثقل كاهلك ، ومريضة
ترهقك ، ثم اني لا احب الناس الذين لا اعرفهم ، اما من هنا فقد
ألفتهم لطول ما جربتهم .

اذن فقد ابت ان ترافقني ، فيا لها من فتاة بائسة ، رقيقة ، كنت
ارى روعي في روحها كما ارى وجهي في مرآة ، وودعني وهي تبكي ...
عدت الى الطبيب في برناذول ، وكان رجلاً عظيماً ، وذكياً
جداً ، ولكن ذكاه كان من الطرز القديم لا من طرزي ، وكان
قاسياً جلفاً لا تعرف انه من السادة الا بما يمارس من عادات ، اما
هيئته فهيئة فلاح : صلب العود ، ربعة ، يمشي كأنه اوزة ، وحركاته
صارمة ليس فيها ما لا نفع فيه ، ووجهه وقور ، احمر ، ذو
لحية ، وكان موفقاً في عمله ، كثير العناية بالمرضى ، مدمناً للخمر
ولكنه لا ينتشي ولا يسكر ، ويجب النبذ على الخصوص ، وكانت
عيناه حادتين مستقيمتين تلمع فيهما ابتسامة كأنها تقول لكل انسان :
— عبثاً تخفي نفسك ، فانا ارى انك قبيح قدر .

وتهاققت عليه النساء وكان شبقاً لا يكاد يرتوي ، ومع ذلك فقد
كنت احس انه برم بالحياة ، كان عابس الوجه يتأوه ويدمدم ويصرف

اسنانه ويصق ، كأننا اكل طعاما تننا متفسخا ، ارضتني بساطته ولم
ترضني ابتسامته التي كانت تقول لي : « ان صاحبي يرى انك ابله ،
وان ثقته بك لا تساوي فلسا واحداً » وكان ذلك يؤلمني ولعله كان
يخيفني .

رآني فاستقبلني استقبالا وديا حاراً وقال مازحا :

— اذن فقد عدت يا علبة المصارين .

أما علبة المصارين هذه فكانت كلمته الماثورة المشهورة .
كان يمازح الناس جميعا كأنهم اطفال ، يمازحهم ويداه في جيبه .
قدم لي كأسا من الخمر ، وأمر بإشعال النار في السماور ودخل المطبخ
يسألني :

— والآن حدثني .

نحن في فصل الشتاء ، وعند المساء ، والعاصفة تلف وتههم وترجر ،
وانا جالس الى المنضدة مع الدكتور كأنني اجلس الى صديق حميم ،
واتحدث فيصغي ويدخن وينبش لحيته ، وهي لحية غير كبيرة كأنها
ذيل دجاجة ..

لم يحدث قبل اليوم ان تحدثت الى اي مخلوق ، مفتوح القلب ،
منطلق اللسان ، اذا استثنيت ليوبا ، أما اليوم ، وأما هذه المرة ،
فقد اطلقت نفسي من عقالي تجري حيث تشاء ، وتذهب اني تريد ،
واستيقظ في كياني تفكير مقدام جريء ، فلقد علمني السجن وعلمي
السفر ان افكر في كل شيء تفكيراً عميقاً ، تفكيراً ربما بلغ بي حداً
أغرق فيه في افكاري ، واذا بي اصبح فجأة وكأني غير موجود ،
وكأني لست سوى روح تعيش وحدها في الفضاء الواسع ، وهكذا

فقد انطلقت في حديثي في يسر وفي سهولة ، وكنت انا اول من
اصابه العجب :

— ليت ليوبا تسمعني .

وحدثت الدكتور عن صانع الاقفال وعن العجوز ، فجعل
يضحك ويقول :

— رأيت كيف أضلوك ؟ الحياة عند الغبي سهلة بسيطة ، ولكنها
عند الذكي اكثر صعوبة وتعقيداً . والآن عليك ان تقرأ يا يعقوب ،
وان تطالع ، فالكتب تثبت لك عكس ما ذهبت اليه . ان الناموس
الذي يهيمن علينا يجعل البسيط معقداً ، والارض قبل ظهور الانسان
كانت حجارة ، وكفى ، لا تنتج شيئاً ولا ينبت فيها نبات ، ثم
تفتت الصخور وتحولت الى رمل وخضار ثم الى تربة منبئة ، ولم يكن
في العصور التي سبقت التاريخ الا حيوان واحد ، هو عصفور ،
اما الآن فانت ترى آلاف مؤلفة من انواع الحيوان والطيور ،
وكذلك كان سكان الارض ، كانوا جميعاً فلاحين ثم نجم منهم
الامراء والملوك والتجار والموظفون والمهندسون والاطباء ، ذلك
هو ناموس الكون .

كان يتحدث في مهارة وشعرت انه يلقي في كيس . وقال لي
وهو يمزح :

— يجب عليك ان تنظر من هناك ، من قمة هذه الرابية ، فهي
في هذا المستنقع الذي نعيش فيه أعلى مكان .

شجاني حديث الطيب وهزني ، وجاري عن قصد الطريق زمنياً
غير قليل . اعطاني كتباً هذا المحتال ، ولكنها لم تكن الكتب التي

يقرأ ، فكتبه ضخمة مجلدة تملأ خزانتي ، اما الكتب التي اعطاني
فرقيقة صغيرة ذات صور كأنها كتب الاطفال ، ومع ذلك فقد
كنت اقرأ واقراً وارى انها تهدف الى ابعادي عن افكاري . كانت
تقص لي حياة الناس في العصور الازاهبات ، فأرى انها شاقة ، وأرى
ان تلك الكتب تريد ان توحى الي ان حياة تلك العصور كانت اكثر
خبثاً واعم شراً من حياتنا نحن في هذا العصر . انها كتب قينة بتهدة
الاعصاب وهددة العواطف ، ومع ذلك فقد كنت اقرأ وافكر :
— وما يدريني ان ما في هذه الكتب صحيح ؟ فانا لم ار ما تقص
علي . ثم اني لا اعيش في تلك العصور البائدة ولكني اعيش في عصري
هذا وزمني هذا ، فماذا يجديني ان اعرف ما كان يجري في تلك
العصور ؟ نحن لا نستطيع ان نجعل الماضي سعيداً ، فقد مضى امس
يحمل اوزاره على ظهره الى غير رجعة ، ولكننا نستطيع ان نجعل
يومنا هذا سعيداً ، واولى بنا ثم اولى ان نتعلم في الكتب كيف
نستطيع ان نبني المستقبل السعيد .

وسألني :

— هل تقرأ ؟

— نعم .

— أليست القراءة لذيدة ؟

— نعم .

لم اقل له ان كتبه لم تقنعني ، ولم اسأله عما يهمني ، وليس ما
يهمني ان اعرف ماذا كتب الناس في الكتب ، ولكن الذي يهمني
ان اعرف لم كتب الناس ما كتبوا ؟ لم اسأله عن شيء من هذا

لاني أعرف انهم انما كتبوها ليسكنوا اعصاب الناس وليطامنوا من
ثورتهم وقلقهم .

وألفت القراءة واصبحت لي عادة : انك لتكتب على الكتاب
وتغمس فيه بصرك كأنك تغمسه في هاوية سحيقة ، والكلمات تجري
وتنسب ، والكلمات تتجرجع وترقص ، والساعات تجري مهرولة غير
منظورة ، ثم تعود الى نفسك ، يا للعجب العجيب ، كأنك لم تعش
على الارض ، خلال تلك الساعات ، كأنك كنت في غير هذا
العالم ، في عالم آخر مسحور .

ولست أحب ان اتذكر الكلمات التي ترد في الكتب ، بل
لست قادراً على تذكرها ، وهبني على استرجاعها قادراً ، فليست لي
بها حاجة ، ان لي كلماتي .

و كنت اجد كلمات لا افهمها : انها تطن في اذني طنيناً ، ولكنها
لا تعني شيئاً . ومع ذلك فقد كنت مرعان ما ادر كها ، وانت
قادر على فهم افكار غيرك ان كانت لك افكارك ، والفكر نور
صادق يريك ما في الناس من رياء وخداع ، وهكذا كانت افكار
الناس تذوب في افكاري كما تذوب الفراشة في نور الشمعة . ذلك
أمر يحق لي ان افخر به .

ورأيت ان حوارى للطبيب يفيدني اكثر مما تفيدني المطالعة ،
وكان اذا فرغ من اعمال المستشفى وعيادة المرضى ، خلع معطفه
وحذاءه ، ولبس نعلاً رقيقاً ، وتمدد على ديوان الى جانبه زجاجة
نبذ ، ثم لا يزال متمدداً يدخن ويشرب ويتسم ويثرثر ويدور
حول موضوع واحد :

— نحن عبيد الماضي ، فللخرافات في نفوسنا جذور متأصلة عميقة وعلينا ان نقلعها في حذر وحيطة والا أفسدنا التربة الطيبة . امس يحكم اليوم ، واليوم يتحكم في الغد ، ومهما نصنع لا ننج من غنعاتنا وتقاليدنا .

كان يردد هذا دائما ، ولكنه كان احيانا اذا استبد به الضجر ، اضاع الحذر فند عن لسانه مثل قوله :

— الى حيث القت ...

ثم يستدرك مسرعا :

— ولكن لا ... هذا مستحيل !

وأزعجني أن اصغي اليه وقلت في نفسي :

— اليك ايتها النفس هذا الرجل الذكي ، انه يعرف كل شيء ، يعرف ما يجب ان يعرفه ويعرف ما يجب ان لا يعرفه ، وهو على الرغم من ذلك غير راض بعيشته ، وهو على الرغم من ذلك يخاف الحل البسيط ويهرب منه .

اما انا فقد وجدت هذا الحل وقبضت عليه بكلتا يدي : اذا سقط عصفور الجنة — وليس عصفورها الا الحرية الانسانية — في خيوط فخ من التفاهة والخرافة تكاد تخنقه وترهق روحه ، اذا سقط هذا العصفور في تلك الخيوط فما علينا الا ان نقطعها تقطيعا وغزقا تمزيقا ثم نطلق ذلك العصفور .

وعرضت بذلك امام الدكتور وألححت اليه ، ألححت اليه ان ليس هنالك وسيلة اخرى تحرر بها الانسان ، ولكنني لم اصارحه برأيي ، خفت ان يهزأ بي ، او لعلي لم اصرح بذلك لامر آخر ... كنت

احترمه لانه يباسطني في الحديث وكنت اذا اغلظ لي لا ابالي .
ولقد كانت لكتبه واحاديثه فائدة واحدة على الاقل ، هي انها
ذهبت رويداً رويداً بايماني ، وما اكثر ما يصبح المرء اصلع وهو
لا يدري ، ها هوذا يداعب قفاه ذات صباح ، وكان امس ذا شعر
كثيف ، فاذا به ولا شعرة فيه . ولم يخفني ضياع هذا الايمان ،
ولكنني شعرت في روحي ببؤس قليل كريبه ، لم يمتد زمناً طويلاً ،
فما اسرع ما فهمت اني طالما عشت على الارض وكأني اعيش في بلد
غير بلدي ، وفوق ارض ليست ارضي . كنت ارى الكون كله
من وراء الله ، كأنما اراد من قرارة بئر عميق ، أما الآن فقد بدت
امامي فجأة رحاب عريضة واسعة وامتدت امامي آفاق رحبة
بعيدة ، واذا بي اشعر اني جريء الفكر ، وثابه ، واذا بي اطلب
من الله اجازة دون مل اسف ، وعلمت اخيراً ان ليس يؤمن بالله الا
حثة البشرية : الا اعداؤنا .

وجعلت منذ ذلك العهد اكتشف تلك العرى التي تشدني الى عمل
غير عملي عروة عروة ، وما اكثر ما بذل الناس من عناية في سبيل
اخفاء عني وتضليلي ، وعرفت عند ذلك ما في حياة الدكتور من
تفاهة ومسكنة ومن قوقعة خارجية زائفة . اباطيل كثيرة : كتب
واثاث وثياب ، انت تؤكد لي ان الامور الخارقة فوق العادة تتطلبها
جمال الحياة ، وانا اقول لك : اذا كنت حريصاً على هذا الجمال فامض
بي الى الغابات ، واوغل في الحقول تجد الزهر وتجد الزرع وتتقذ
وجبهك من الغبار وعينيك من القذى ، وتجد النجوم التي لا تحتاج الى
مسحها بالخرق البالية ، بينما انت هنا تهتك ترهات الارض ارهاقاً

وترحم حياتك وتضطررك الى عمل حقير .

انك ايها الدكتور تقضي في اخذ زينتك ولبس ثيابك خمس دقائق ، ولكنك تقضي اكثر من هذا الوقت في ازرار اكمامك ورباط رقبته ، انك تولج تلك ايلاجاً وتعقد هذا تعقيداً ، وتسب وتلعن كأنك فلاح . دع عنك ما يتطلبه حذاؤك ذو الازرار من جهد ووقت ، بينما تستطيع ان تتعل حذاء روسياً بسيطاً دفعة واحدة ، أفهمت ؟

كل هذه الازرار والاربطة ، كل هذه الآلاف المؤلفة من الترهات والباطيل ، كل ما في الحياة من تراويق وپهارج يجب ان نخطمها وننقذ الانسان منها . أحط نفسك بكل ما هو متين ممكن تصبح انت اكثر متانة واشد تمكناً ، اما الالاعيب واما التهاويل فيجب ان تكنسها كنساً .

وعرفت تذوق السادة لكل ما هو تافه في احاديث الدكتور ، هذا الرجل الذي يبدو لك مفكراً وحكيماً ثم هو لم يستطع انقاذ نفسه من هذه التوافه ، ولم يستطع ان يرى ان كل نوع من انواع السيادة يعتمد على الترهات : الكتب ، الالاعيب ، الآلات . . . ان الانسان قد كبته قيود من الورق . وليس من مصلحة الدكتور ان يفهم هذا لانه هو نفسه شريك السادة في هذه السيطرة ، وهكذا كنت أجده اذا ضرب صرح الفساد الاجتماعي بفأسه ضربة او ضربتين اسرع فغطى موضع ضرباته بشبكة من الكلمات ، واسرع يردد ان علينا ان نكون اولي حذر واصحاب حيطة ، واننا لا نستطيع ان نصنع كل ما هو خير دفعة واحدة . انه انسان يحرق

نفسه بنار غضبه ، وينصب نفسه غرضاً لسهامه ، والحق أني أسفقت عليه في كثير من الاحيان .

ولم أنس اثناء تطوري الفكري حياتي الخاصة ، فدبرت أمري مع امرأة ، كانت ممرضة في المستشفى ، شقراء ذات عين واحدة خضراء ، اما عينها اليسرى فقد غمس فيها حبيبها ، وكان فراء ، ابرة ، ففقاها وسالت العين في نظافة لا بأس بها ، وهبط الجفن فغطى العين غطاء تاماً ، ولم يشوه هذا الحادث وجهها تشويهاً خاصاً ، وكانت وجهها نحيفاً وانفها كبيراً بعض الكبر ، ولكنه لم يزعجني ، وكانت هذه الممرضة تعيش مغمضة العين ، صامتة ، عبوساً ، ومع ذلك فقد كان يرى الناس فيها امرأة عاهرة .

ملت اليها ، وأهبت عينها الصغيرة الخضراء دمي ، فكأنه لم يلتهب ابداً ، وانت تراني اعرج ولكني مع ذلك قوي شديد ، وكان وجهي اكثر لطفاً ، وكانت النساء تطري عيني كثيراً ، بل ان ليوياس نفسها قالت لي مرة :

— لك عينا فتاة يا يعقوب .

ولكن تاتانيا لم ترتضيني بادىء بدء فقلت لها :

— انت عوراء ، وانا اعرج ، فلنعش خليلين

— كلا ، لا اريد ، كفاني ما لقيت منكم يا معاشر الرجال .

وأهبني عنادها اكثر مما أهبتني عينها ، وجعلت ادغدع شغاف

قلبها فلانت وظفرت بها ، وتقلبت منذ ذلك اليوم في ماء يغلي ويفور .

كانت في دعاها شبة شبقاً وحشياً ، شهوانية شهوة بهيمية ، فكان حبها معركة ، وسرعان ما شعرت ان العمل الجنسي لا يلذها مثل

ما يلذها ان تمتص قواي امتصاصا ، وان تلقني بي نضوا هزيلا
كالعود اليابس .

وكانت اذا لم تظفر بي غضبت وزادت شبقا وشهوة ، وسألتها
ذات يوم وكانت صريحة مستقيمة :

— اتخدعيني ؟

— كلا

وسكنت قليلا مفكرة ثم قالت فجأة :

— ولكن ... الا ترى ؟

ثم تابعت وكأنها تصفعي :

— نعم .

وهملت بضربها ولكنها تنهدت ونظرت الي بعينها الخضراء
الوحيدة ، وكأنها تأبئة من ذنب ، او كأن خيانتها أمر لا يتعلق
بها وليس لها عليه سبيل ، ولقد تأملت ، فالحب صعب ، وربما اصابك
مرض مخجل ، ومع ذلك فقد ارضتني صراحتها وسرعان ما رأيت ان
روحها شقيقة لي ، وان ذكائها غير نائم .

كانت شرسة ، اذا لمستها تأججت ، خبيثة يتفجر الخبث في كل
كلمة من كلماتها ، وتلمع عينها لمعة شريرة حاقدة ، وسألتها مرة وهي
في ساعة من ساعات لينها النادرة :

— لماذا انت خبيثة هذا الخبث كله ؟ !

وعندئذ قصت علي قصة فرق العادة ، كانت يتيمة تسكن في منزل
اختها ، وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرها أزال يكارتها زوج
اختها وهو سكران ، وتحملت عامين عارها خجلا وخوفا ، ثم

اكتشفت اختها علاقتها بزوجها فطردتها طرداً ، وخرجت من بيت
اختها الى الموابخ فعاثت مومسات ثلاث سنوات ، واشبعها الزبائن
السكراري ذات يوم ضربا ولكما ، ودخلت المستشفى ورآها الدكتور
فيه فقبلها ممرضة عنده ، واثار وجودها في مستشفى فضيحة وألح
الناس في طردها ولكن الدكتور اصر على انقاذها ورفض
طلب الناس .

وسألته :

— ايضاجعك؟

ففتحت عينها وقالت ساخرة :

— لسنا نصلح لمثل هذا الحيوان . انه لم يلمسني لمسا .

— اذن فعلام تسخرين منه ؟ وكان عليك ان تشكريه .

ومصت شفيتها في غيظ وقالت :

— سأشكره ذات يوم .

حقا لقد كانت امرأة نادرة ، وسنجدها مرة اخرى في قصتنا ،
كانت ممشوقة القوام ، رشيقة كالسنجاب ، اذا برزت للناس أخذت
زينة متواضعة فتبدو من اجل السيدات . نعم ان وجه ليوبا كان
اكثر ظرفا ولطفا ولكن ليوبا سقيمة عليمة .

وعشت اجلو نفسي في لطف وهوادة ، والحرب يشتد أوارها
في عنف وقسوة ، فهي تبتلع الناس كما يبتلع الموقد الحطب ، ودعي
الدكتور الى الخدمة فقال لي :

— والآن يا غلبة المصارين ... هيا معي نرقع هؤلاء الاغبياء

الذين يدمر بعضهم بعضا ...

ومضينا ومضت معنا تاتانيا وهي تدمدم :

— يا لهم من اغبياء.. هيا اكسروا بنادقكم ومدافعكم وقطروكم ..
وصيحوا : خذوا عنا حربكم .

نحن نعرف انا لا نملك في الحرب حظاً ولا نظاماً ، وهكذا كانوا
يقذفون بقطارنا من محطة الى محطة ، فنحن نتدحرج تدحرجاً ولا
نعمل عملاً ، وغيوم من الجنود تمر امام اعيننا رمادية قائمة ... كانوا
يذهبون الى الحرب وهم يطربون ويغنون ، ويعود الذين يعودون
منها وهم يصرخون ويشنون .

وغضب الدكتور وسود صفحات كثيرة ، وارسل برقيات
وطلب عملاً وقال لي :

— ارأيت يا علبة الامعاء كيف يعاملون الشعب ؟

ثم لم يلبث ان اغبر وجهه ، وانتفخت اوداجه ، وشم الناس
جميعاً ، وسب السلطات والحرب والفوضى ، وعجبت من جرأته .
ومغامرته وقلت لتاتانيا :

— ألا ترين كم يطلب عملاً ؟

ودمدمت الخبيثة بين اسنانها وعينها مغمضة :

— ذلك انه يطلب الاوسمة !

— كلا . ان له دافعاً آخر اكثر نبلاً .

كان يتحدث حديثاً معتولاً رزيناً كما يتحدث الولد الصاحي عن
والد سكير هو وارثه الشرعي ، وكان الموظفون في المحطة والجنود
الذين يحرسون سكة الحديد ، وكل من في المحطة يصغون الى حديثه
في ثقة وايمان ، حتى ان الدرك انفسهم اعترفوا ان الامور لا تسير

على ما يرام ، وحاولت ان انبه الدكتور وان اطلب اليه ان يكون اكثر حذراً وحيلة ، ولكنني لم استطع الى ذلك سبيلا فقد كان عسيراً ان تقاربه ولو فعلت لثالثك لكمة او صفة من هذا الذي يتميز غيظاً .

وفجأة جاءنا عجوز صغير ، انه كلب نائم ، ذو صليب احمر على ساعده ومعطف احمر على زواياه ، ولعله مفتش ، وجعل يتخطو ويتقلب ويزعق بالدكتور :

— الى المحاكمة ... الى المحاكمة

وجعل الدكتور يولج اوراقه في انف العجوز ، وهو انف صرد ويهتف : وهذا ما هذا ؟

وانت تعلم ان الاوراق ليست عند السلطات قانوناً نافذاً كما ان الايقونة ليست عند من يصورها رباً معبوداً ، وألقي القبض على الطبيب وقام الدرك بجراسته ، وعند ذلك رأيت تاتانيا صاحبتى تنقلب انقلاباً وتحض المحطة خضاً ، عند ذلك عرفت بسالة هذه المرأة وشجاعتهما ، كانت تخاطب الناس جميعاً وتلقى الناس جميعاً ، ويسخر بها من يسخر :

— اذن فالطبيب عشتك ؟ !

وسخروا مني ، واحسست اني لست على ما يرام . نعم اني لم الاحظ انها كانت تخونني فتصل بالطبيب ، ولكن هل من الممكن ان تراقب هذه الامور ؟ انها تجري في لطف وفي رفق ولا تستغرق الا دقيقة واحدة ، ثم ان ثياب النساء اكثر من ثياب الرجال يسراً وسهولة ، واكثر ملاءمة لمثل هذه الاعمال .

وقلت معزيا نفسي :

— لعلها انما تعترف بجميل الطبيب وتجهد نفسها في سبيله . ولست ادري كيف انتهت ثورة تاتانيا . لقد كانت الخوارق فوق العادة في ذلك العهد ترفرف فوق الارض كما ترفرف الغربان عند مغرب الشمس ، وكان درك المحطة لا يعرفون ما يصنعون ، هاهم اولئك يهزون مسدساتهم ويهددون الناس باطلاق النار .. وبدأت طلّائع الثورة في تلك الاثناء وشرع الجنود يهربون من ميادين القتال ...

وفجأة اكتسح المحطة قطار ليس له سائق . ولا ادري كيف استطاع ان يقف على بعد كيلومتر واحد ، وكان لا يحمل غير الجنود ، وجأؤوا من كل صوب يهرعون ، وجعلوا يطوفون ، واثاروا غباراً يستحيل علي ان اصف كثافته وسواده ، وخنقوا مدير المحطة وهم يصرخون في وجهه :

— نريد سائقا ، نريد سائقا

وضربوا فقتلوا ذكيا عجوزاً ، كان خبيثا ، ودمروا كل شيء ، وقلبوا كل قائم ، وبعثروا كل مجتمع ، واخيراً اخذوا عامل الحوض ، ومضوا به الى قطارهم منتصرين .

وها نحن اولئك في المحطة بعد رحيلهم كئنا في حريق : الزجاج يطقطق تحت اقدامنا ، والدكتور ، وقد اطلق سراحه ، يغمس يديه في جيبه ، ويغمز بعينه ، كأنه يستيقظ من نوم ، وانا اقول له :

— يجب ان نروح !

— اخرس ، واين نروح ؟

وامرنا ان نحمل الجرحى والقتلى ، ولم نكد نجتمعهم حتى داهمنا

قطار آخر يدوي دويًا ، ويتفجر جنوداً مجانين ، ومضى في طريقه وجاء قطار ثالث ، وهكذا دواليك، وانقلبت الارض بالناس فما يدرون أقيام هم ام قعود ؟ وما اريد ان اقص عليك ما كان ، فانت تعلم تلك الزوبعة البشرية التي قامت قيامتها في ذلك العهد .

اما انا فقد فزعت فزعاً كفاني واغنائي ما بقي لي من عمري ، وخاصة عندما اخذ الجنود قطارنا فيما اخذوا . وهرب الممرضون والمرضات وحتى حملة الجنائز ولم يبق منا غير ثلاثة : انا والدكتور وتاتانيا ، وجن الموظفون في المحطة جنوناً ، والقطر تروح وتغدو دون هواده ، والصرخات والزعقات تروح وتغدو معها دون هواده ، واذا هدا الليل زاد الفزع وتفاقم الهول ، والمحطة صغيرة ، والمحطة منعزلة ، والغابات تطوقنا ، وفي احدى الزوايا قرية صغيرة للمهاجرين ، اذا اشتعلت بها المصابيح خيل اليك انها عيون ذئاب . يا لهول ما رأينا ! كنا نقضي ساعة او ساعتين يلفنا صمت اسود ، كأننا في قعر هاوية سحيقة ، واذا بنا نسمع من بعيد ازيزاً يقترب ، ودويا يشدد ، واذا بنا بعد لحظة نرى باعيننا جندياً كالوحش يدور ويلوب كأنما تسوقه الشياطين بعصاها الساحرة .

ومضت عشرة ايام ونحن نعاني هذه العاصفة . اما لم ثارت ؟ فلست ادري ، كل ما كنت اعرفه اننا كنا نعني بتسعة مرضى في المستشفى ، فمات منهم اربعة ، وعاش منهم خمسة يؤلمهم الرعب اكثر مما يؤلمهم المرض ، والدكتور يقول للناس جميعا ان الثورة قد اندلعت نيرانها ، وان السلطة الحاكمة سينالها التغيير ، وانا افكر في هذا التغيير واقول : — اذن فهناك قيد جديد يصوغونه ليشقى به الناس .

وتركزت هذه الفكرة في ذهني حتى أصبحت كالصخرة ، اما
تاتانيا فكانت تصغي الى الدكتور في لهفة وعنف. وحدث في ذلك
الحين حدث صغير : كنت اقترب من مهجع الدرك وكان المرضى
يحتلونه ، فسمعت تاتانيا تقول :

— أنت متقزز مني ؟

وتطلعت من النافذة فرأيتها واقفة امام الدكتور كأنها وتر
مشدود ، اما هو فجالس يدخن ويزمزم وينظر الى قدمي تاتانيا
ويقول لها :

— اذهبي ... اذهبي ...

وخرجت العوراء الى الدرج ، ومسحت يديها بذيل ثوبها ثم صرخت :

— لا ضرورة لبقائنا هنا

وضحكت وقلت :

— ذلك اكيد

وراقبتها عن كئيب . وحاولت ان افجأها مع الدكتور .
ولو فجأتها لضربتها فطالما زهت علي وتكبرت وافتخرت بما لقيت في
حياتها الماضية من مآس وحوادث ، ولكن المناسبة لم تسعدني ، ولم
أشأ ان اضربها هكذا دون سبب . وقلت : كفاني ما كان .

واستأذنا الدكتور بالرحيل فأذن لنا ومضينا في طريقنا سيرا على
الاقدام ، ذلك ان تاتانيا لم ترغب في ركوب القطار وهي تعرف
ان مثلها عند الجنود مثل شحم الخنزير عند الفئران .

سأيرنا الخط الحديدي ، وكنا ندخل القرى في طريقنا فتطعمنا

وتسقيننا . حقاً ان-الانسان ليستطيع أن يعيش . كان الفلاحون يهبون من نومهم وتفتح اليقظة عيونهم ، ويتلهفون الى اكتناه المستقبل . وثانياً تردد كلمات الدكتور . وانا اقول لهذا او لذاك في هذه المناسبة او في تلك :

— لتتفق على جعل الحياة بسيطة . أسمعتم ؟ ان قوى السادة تضعف وتخور ، وهم لا يعرفون كيف تدبر الحروب ، ونحن لا تخضعنا قواهم بقدر ما تخضعنا افكارهم واباطيلهم . لقد دقت الساعة ... وحصل الحق .

كنا نستريح ثم نستأنف رحلتنا ونستأنف دعواتنا ، وشعرت ان ثانياً ما تزال ناقمة على الدكتور رغم انها آمنت بكلماته وايقنت ان الثورة عيد من الاعياد . وقلت لها :

— تذكري أيتها البلهاء الصغيرة أمراً واحداً . ان السادة لا يقدرون على الحياة دون خدم ...

وكانت ترجرج وتأبى ان تصغي الى قولي . واخيراً ركبنا قطاراً هادئاً وبلغنا (تشيتا) ، كانت العاصفة تهمخض ثم تنفجر في الشوارع ، وفي الساحة العامة ، والشعب يتلوى كما تتلوى في السلة السراطين .

والصينيون يسندون ظهورهم الى الحيطان ويسخرون ، اما وقد مر ذكر الصيني فاسمع رأيي فيه : انه ذكي ، يقول لكل انسان أنت مصيب ، ولكنه لا يؤمن باحد ، عبثاً تحاول ان تلاعب صينياً بالقمار . انه الرابع دائماً .

وتاتانيا مسرورة فرحة ، وعينها الخضراء براءة لامعة ، واسنانها
الصغيرة تبدو للناس وهي تصرخ بهم :
— كفانا ذلاً ... كفانا هواناً ...

واراها فاضحك على الطريقة الصينية ، ماذا يعني ان يذهب
بعض البيادق الى الفرازين ؟

وجعلت أبيع الصحف والتجول وألاحظ ، وعرفت ولداً كان
سجيناً سياسياً ، ثم استطاع الفرار . كان قويا شديد القوة ، طويل
الذراعين ، ومع ذلك فقد كانت مهنته تستدعي الضحك ، فهل ظننت
انه كان ساعاتياً ؟ كان من تلك (السلطة) التي استولت على الحكم
في المدينة ، وكان يرى ان الثورة هي الخطوة الاولى في طريق
الحرية . وقلت له :

— أمامك خطى كثيرة فسر وامرّع ، ولا يلهينك هذا النصر
الموقت ، ولا يأخذك الفرح اذا جلست في مجلس « الدوما » الى
جانب سادتنا

ويعدني الوعود ويقول :

— مهلاً ... مهلاً ... سنسير في طريقنا ونسير . كان طيباً وكان
ساذجاً ، ولكنه سرعان ما يؤمن بالاحزاب ، وما الاحزاب ؟ هناك
حزب العمال وحزب الفلاحين ، واحزاب بورجوازية كثيرة ،
ولكنها جميعاً لا تعمل في سبيل الشعب ، بل تعمل ضد القيصر . اما
اليوم فقد اصبح حزبنا وحده هو الذي يعيش في الصراط المستقيم .
وبدأت اباداة الشعب اباداة وحشية منظمة ، فقد وصل المدينة
ضابط يقود جنوداً ، فانهارت الثورة واستعالت الى تراب ...

قال لي الدكتور ذات يوم : ان المجازر في بطرسبرج قائمة على قدم وساق ، والشعب يباد في شوارعها ويذبح ذبائح النعاج . ولم اصدقه ، وظننتها احدى اباطيله ، اما الآن ، وبعد ان رأيت ما فعل الجيش في تشيتا فقد صدقته . كانوا يسحقون الناس كما يسحقون الجوز ، ويقتلونهم حيث ثقفوهم ، دون نقاش ، ويلجئون على ذبحهم ذبحاً لا يصدر الا عن دعر شديد ، وهذا الدعر باد على الوجوه جميعاً ، وجوه الجنود ووجوه الشعب . ويخيل اليك عند اول نظرة ان عيون الناس اصبحت من زجاج ، انها عيون عميان ، او عيون موتى ، فاذا انعمت النظر رأيتها ترتجف .

كان لصاحبي الساعاتي صديق يدعى « بيير » وهو ولد جريء ملاح هرب مثله من معتقله ، وكانت يده اليسرى ذات ست اصابع ، وارادت الشرطة قتله فافتدى نفسه بسبعة عشر روبلاً ، فعاد يقول لنا :

— تأملوا قليلا ايها الرفاق : اننا ندمر كل شيء قولاً ، ولكننا نستحيي من قتل فأرة فعلاً ، اما هذا القائد .. لو قتلنا رجلاً واحداً لتألمنا وندمنا ، اما هم فيقتلوننا كما يقتل اليابانيون السمك . ولقد كان هذا القول صحيحاً ، وانا الذي رأيت ما بين اقوال التأثيرين وافعالهم من فرق ، وعلمني العهد الذي قضيته في تشيتا فأحسن تعليمي ، رأيت اشياء كثيرة ، وفكرت في امور كثيرة ، وازدادت افكارى رسوخاً وتمكناً .

ونجوت من الموت بأعجوبة ، ألقى القبض علي وعلى الساعاتي وساقونا الى ساحة الاعدام ، وفجأة نظر الي وكييل الضابط وسألني :

— يا أعرج ! من اين انت ؟ ألسنت من برناؤول ؟
وقال للجنود :

— خلوا سبيله فأنا اعرفه ... انه ابله وكان حوذاً عند الدكتور
وسررت بالنجاة وقلت مازحاً :

— وعلام تقتلون الاغبياء ؟ ! اذبحوا الاذكىاء وحدهم كيلا
يفسدوا علينا حياتنا .

ودفعني وكيل الضابط في درب صغير وهو يصرخ :

— سر في طريقك يا بن الكلب ، واشكر الله على ما في نفوسنا
من صلاح .

ونجوت ، وسيق الساعاتي فأعدم رمياً بالرصاص . ورائه تاتانيا
هناك يتمدد على صدر التراب ، ووجهه لا يزال يفيض بالحياة ، ويمور
بالنشاط ، وفي يده قبضة من تراب وطنه ، ولكنهم ذهبوا بجذائه .
وهجرت تاتانيا ، فقد نقر أنفها الكبير افكاراً سياسية من صاحبها
الملاح ، وشرعت تلقي علي دروساً ، ولست ممن يألف الدروس .
ان اولئك الذين تهتمهم السياسة لا يساوون كبير شيء ، فالسياسة
تفكك ذكاءهم وتخلعه ، فاذا بهم لا يفهمون الحياة في مغزاها البعيد ،
اما انا فكنت ارى الانسان في اعماق نفسه ، واسبر غوره واقول :
عقلنا وحده هو الحكم الفصل ، والقاضي الصادق ، اما السياسة فتسيطر
على هذا العقل وتبطش به . رأيت كثيراً من افراد الحزب يناضلون
ولكنهم جميعاً كانوا يستهدفون غاية واحدة : ان يبرز كل منهم
اكثر ذكاء من سائر الافراد .

وقالت لي تاتانيا ذات يوم :

— انا اعرف ما افعل ، ولست اهلا لمعرفة ما تفعل . انت تملأ
السماء بالدخان ، ولا تريد ان ترى في الارض غيرك .
وكرهتها كرهاً عنيفاً فتركها واشتغلت حارساً في محطة ذات
اسم مضحك ، كأنما هو ام شاحوط .

عشت وراقبت : الناس يطرقون رؤوسهم وهم يائسون وانا
اتعابى واصطنع البلاء واشتغل في وجدان ، واطلب رضا الناس
جميعاً واردد كلماتي الحمقاء :

يجب ان نسوي بين الناس ، يجب ان نجعل الحياة بسيطة .
والناس يسمعون كلماتي ويفهمونها ، وانا اتحدث في جرأة حتى امام
الدركي ، وكان هذا الدركي روسياً صغيراً يدعى كيويانكو ، ضخيم
الجلثة ، له خرطوم السلور وشارب الصيني ، وكان ابله حقاً .

كان يدحرج عينيه ، ويصغي ، ويمخط ويصق ، فاذا جاء الليل
— وكنت حارس ليل — اتاني يلقي علي نصائحه :

— ستزدي بك اقوالك الى الاعداء . هذا كلام الثوار .
واجيبه في سذاجة :

— اسمع يا اوسيب ابجوريفتش . ان الثوار ليسوا معلمين للبسطاء
من الناس ، ولكنهم لهم اعداء . انهم يبحثون عن السلطة ، اما نحن
فنبحث عن حرية الروح .
ويمخط كيويانكو ويقول :

— يسرني ان اسمع منك هذا الحديث ، ولكن كن اكثر
حذراً . انت بريء مسكين ولكن اصحابنا لا يرون ما ترى ، اما
انا فارى ان في حديثك وحي الانجيل ، وليس الانجيل في مثل هذه

واصبح كيريانكو لي صديقاً طيباً . ونفعتني صداقته ، فقد كانت كلماتي تنفذ الى قلوب الناس ، فهرعوا يتوافدون الي من المحطات ويستمعون ، وجاء معهم آخرون يريدون ان يعلموني ، ويعرضون عليّ ان ادخل في صفوف الحزب . وكنت اصطنع مع هذه الزمرة من الوفود غباء ابذل في سبيله كل ما في عقلي من قوة ، فلا يلقون مني غير النفور ، وكيريانكو يقول لي حيناً بعد حين :
— انتبه وخذ حذرك .

كان من الممكن ان تطول بي الحياة على هذا النمط هادئة مطمئنة ، لولا ان الشيطان ألقى في طريقي بمشحم القطر «سيمون كورناشيف» ، شعر أجعد ، وشدق مرقش كأنه شذق دهان ، يرقص ويعزف ويهرج . ولكنه كان متفتح القلب والعقل . وسرعان ما اعتنق مبادئي وآمن بها . ولكن بعض الناس دفعوه الى الشر دفعاً . وفي ليلة من ليالي الربيع سمعت : بم بم الطلقات تدوي من وراء المحطة ، وهرعت الى هناك ولكن في بطاء وهوادة : ليس يجدي المرء ان يصل الى الحادث اول الناس . ورأيت سيمون يركض الى الصهريج . وظننت انه ليس من اطلق النار . وان النار قد اطلقت عليه . واجتمع الناس يصرخون :
— قتل كيريانكو .

كان كيريانكو ممدداً على قارعة الطريق ، ورأسه في السياج ، وذراعاها امام رأسه . وتراكم الموظفون وشرع بعضهم ينصح

بعضاً :

— لا تمسوه .. لا تمسوه ..

وركض ايضاً سيمون يحمل بيده مطرقة . وجعل يردد اكثر
من الناس جميعاً ولا يقف عن الترداد :

— كنت عند الصهريج ، وفجأة سمعت صوت الطلق الناري .
كنت عند الصهريج .

وقلت في نفسي عندئذ :

— اذن فانت القاتل ، ايها الجرذ الوقح !

وجاء الدركي الثاني ، وهو العجوز فاسيلييف يصرخ :

— وجدت المسدس . رائحته نפט . تذكروا : رائحته ...

وشم الناس المسدس وشمه معهم سيمون ودمدم :

— حقاً ... ان رائحته نפט

كان سيمون يقول ذلك وفاسيلييف يصارحه :

— عندنا اثنان فقط يلوئها النפט ... انت وميكيفتش ، ولذلك

فأنتما متهمان ...

يا للعجوز ما أحقره . لو كان اخرس لكان ذلك خيراً له .

واعلنت اني رأيت سيمون عند الصهريج حين دوى الرصاص . فلقد

اشفقت على الفتى ، ولكن فاسيلييف ظل يصيح :

— ألهم في القضية النفط والشحم . وانت ايضاً يا يعقوب متهم ،

لذلك فانا ألقي عليك القبض . انك حارس مسئول ...

فجأة قفز سيمون قفزة فكان وراء العجوز ، وكال له ضربة

على قفاه بكل قواه ، فخر العجوز ولم يقل : آه . وقبضوا على سيمون

واوثقوه بالحبال وصنعوا بي وبميكيفتش كما صنعوا به ، وألقونا في
غيابة قاطرة من قاطرات الدرجة الثالثة تحت حراسة رجال يتنزهون
تحت النوافذ وبأيديهم هراواتهم

وبكى ميكيفتش ، ونشج نشيجا ثم نام . ووششت في اذن
سيمون :

— ولم فعلتها يا ابله ؟

ولم يرغب في الكلام وجعل ينتحب ، ثم قهرته وها هو ذا يسر
الي ان قد دفعته جماعة من الحزب ، لان كيريانكو وشي بأسماء
الذين يزوروني . وطأنت الفتى ، لان لي ضلعا في القضية ، واقنعته
بضرورة الكتان .

في ذلك العهد كان القضاة قساة كما كانت الحياة : دبروا امر كم
وهاتوا لنا مجرما . المهم ان تأتوا به . وحكم على الفتى بالموت شنقا ،
رغم اني اصررت على تأكيد براءته وعلى اني رأيت به عند الصهريج ،
ولكن الضابط المحقق ردني وهو يقول :

— لقد اجمع الناس على ان هذا الحارس نصف مجنون ، نحن
لا نستطيع ان نشق بما يقول .

ولم يحاكم ميكيفتش ، واطلقوا سراحه ، واطلقوني ، فتعجب
اصدقائي وقالوا :

— انك لتتغابى تغابياً ظننا انه سيقود الى سحقتك . وطردت من
المحطة طبعاً ورحت بعدها اطوف في البلاد واعيش كما يعيش النوري :
فأنا طوراً في الاورال وطوراً على ضفاف الفولغا ، ومرتين في موسكو
ومرة في رязن ، وآونة البحر في نهر او كاونوتياً على ظهر مركب ،

ورأيت فيما رأيت تلك « السافاقما » المشهورة : بلد صغير لا يسوى شروى تقير .

عشت ولاحظت ، ولكن نفسي بقيت قلقة ترتقب في عناد واصرار شيئاً مالا بد ان يحدث .

و كنت ذات شتاء حوذاً في ريازن ، وفجأة شعرت اني اهوي في الفراغ . لقد رأيت راهبة : انها ليوبا .

اوقفت حصاني وصرخت : ليوبا ... ليوبا !

ولكن لا ... ليست هذه الراهبة ليوبا ، وكأنا قذف بي في ماء يغلي .. ليس بينهما وجه من الشبه : وجه هذه الراهبة خرقة بالية ، وعيناها نائمتان .

وها أنذا بعد هذه الخيبة المريرة اصبح اكثر سأمًا واشد مللاً ، واطلب العودة الى سيبيريا .

وجدتني في آخر الربيع في « تومسك » فيممت شطرا المستشفى ، وكان صاحبنا الدكتور الكسندر سيريلوف قد شاول من لقيت ، وسررت به على الرغم من اني لا احب ابداً ان التقى مرة اخرى الناس الذين عرفتهم من قبل . ان على وجوههم سماء من يقول لك : — انك تدور ثم تدور في حلقة مفرغة ثم تعود اليينا .

ورأيت الطبيب ابيض الشعر ، اصفر الوجه ، ذهبي الاسنان ، وفرح بي ، وضغط على يدي وهو يضافحني ، وربت على كتفي كأنني صديق حميم وقال لي وهو يمزح كالعادة :

— والآن اخبرني يا غلبة المصارين ، هل استطعت ان تقضي على كثير مما وجدت من امور فوق العادة ؟

واعادني الى عملي ، وها انذا من جديد ادير عيادته ! كان
يسكن جناحاً صغيراً في المستشفى تطل نوافذه على البستان ، فيه
غرفتان ومطبخ ، وها انذا من جديد اعود فاقص عليه ما رأيت
كما تقص الجدة العجوز الاساطير على حفيدها . كنت وانا اتكلم اصغي
الى كلامي : ألا ان هذا الأمر لذيذ .

ورأيتني فجأة افهم كل شيء . ان الافكار الصحيحة لتأتيك
بغثة من حيث لا تتظر ، فاذا انت على بصيرة من امرك ، وقد
حدث لي ذلك في احد الملاعب ، وكنت طالما زرت لا تفرج على
المتصارعين ، ولقد ادهشني منهم مصارع من فنلندا . لم يكن كثير
القوة ، ولم يكن ضخيم الجسم ، ومع ذلك فطالما صرع رجالا اكثر
منه قوة واثقل منه وزناً : كان ينتصر عليهم بمهارة غير عادية ،
وبدقة فنية .

رأيت يوماً يدور حول مصارع روسي ضخيم ، وفجأة فسمت وانا
استيقظ من نوم عميق : تلك هي البهتان المين الذي يوارى كل ما في الحياة
من شر ومن باطل .
وتصببت عرقاً ، وقفت عظامي ، وهي تنتفض وتتحف . سر
الروح ، ومفتاح الحياة في هاتين الكلمتين :

« المعرفة شر » .
ان الضعيف يغلب القوي بمعرفته ، وان الشعب يحرم بالمعرفة من
حريته ، رأيتها في وضوح يعني البصر مصدر كل ما هو فوق العادة ،
ومبدأ كل ما يفرق بين الناس ، اذن فأمامنا احد امرين : إما ان

يعرف الناس جميعاً معرفة متساوية ، وأما ان يحرم الناس جميعاً من المعرفة .

لا ازال اذكر اني دخلت البيت بعد هذا الكشف ، وانا في حذر حذر حتى كأنني احمل فوق رأسي سلة من ببيض ، وفي نشوة غامرة حتى كأنني سكران .

ومن الناس الذين يزورون الدكتور جماعة كانت تتحدث في السياسة دون ان يؤذيها وجودي ، وكنت بذلك فخوراً . ومن هؤلاء الناس شيخ داهية ابيض ذو عوينات ، احذب الظهر ، غليظ العنق ، يدير رأسه وجسده معاً كالذئب ، ويرن في صوته نباح الجوع والبرد ، كان يقدم من المحطة حاملاً حقيبة صغيرة ، ويفرك يديه وجمجمته ولحيته ثم يناقش الناس الحساب :

— هيا ! كيف الاحوال ؟

وها هو هذا يقدم في ليلة من ليالي الصيف هو وحقيقته الصغيرة ، مقدداً مجففاً مدخناً كأنما قذف به القرن من قريب ، وها هو ذا يضع حقيقته على الارض ويحيينا قائلاً :

— الحرب قريبة .

والحق أن حماقتنا الانسانية قد انعجت مرة اخرى ، وأنا طبعنا الحرب من جديد ، وبدأ التغير العام ، وقرعت الاجراس والنواقيس ، وقال الناس للخراب أهلاً بك ، وغمز الدكتور بعينه وقال لي :

— أرأيت يا غلبة المصارين ؟ ! هذه بساطة الحياة !

ولقد هدني الأسى واستنزف قواي ، ليس في الناس واحد يدرك

أية فائدة في الحرب ، ولكنهم مع ذلك يحاربون . نعم ان العجوز قد بين للدكتور ان الحرب الجديدة منتهية حتماً الى الثورة ، ولكن هل تحمل الي هذه الثورة شيئاً من العزاء ؟ لقد رأيت قبلها ثورة اخرى ملأت الارض مآسي ومجازر ، ولكنها لم تحمل الينا بارقة خير ، بل انها حملت الينا على عكس ذلك كثيراً من الشر .

ودعي الدكتور الى الخدمة العسكرية ، وقد صعقته هذه الحرب كما صعقتني ، وقال للذئب العجوز :

— لو أطلقت على رأسي رصاصة كان ذلك أشرف لي .

والعجوز يردد قوله :

— الهزيمة واقعة حتماً بعد ثلاثة اشهر ، والثورة واقعة حتماً

بعد الهزيمة .

لا اريد أن احدثك عن تلك الحرب : خليط بابلي ، غليان جنوبي ، الفلاحون في سيبيريا يساقون الى روسيا ألوفاً ألوفاً ، ويحل محلهم ألوف وألوف من أمم وشعوب أعرف انا بعضها كالتشيك والمجر والامان ، ويعرف الشيطان سائرهما ، خليط بابلي ، وطواعين وانين ، وبرك من الدماء ، ونساء كالوحوش ، وانا والحق اقول لك ، خائف من هذا الهول كله .

كان الطبيب يقتل من مدينة الى مدينة ، ومن معسكر الى معسكر ، Liecny بالاسرى ، وعلى رغم اعفائه لي من العمل لم اجرؤ على تركه . كان انساناً كاملاً ، لا ينام الليل ، ولا يجد وقتاً للطعام ، وعجبت لامره : ما له يبذل كل هذا الجهد ، ويعاني كل هذا التلق ؟ أي خير جلب له الناس ؟ ولم يعني بهم كل هذه العناية ؟ وهم

فوق ذلك اجانب وغرباء لا تربطه بهم وشيجة قرابة ولا نسب. انه لا ينتظر ترفيعاً ولا يطلب وساماً ، ورؤساؤه يمزقونه ارباً ارباً .
واليك الآن حادثاً من حوادثه :

جاء الجند بعدد من الاسرى فالتقوا بهم في زاوية ثم نسوهم ، واتانا المشرف عليهم يشكو موت رجاله برداً وجوعاً ، وامر الدكتور حراس المحطة ان يفصلوا من اول قطار شاحنتين تحملان دقيقاً وخشباً ثم وزع ما فيهما على الاسرى ، واحيل الى المحاكمة ، واجل الحكم الى نهاية الحرب . كان يخرق القوانين في غضب حرماً على العناية بالناس .

لقيت تاتانيا في بلدة « تومين » ، كانت تحوم حول الاسرى ، تأثر ثياب ممرضات الصليب الاحمر ، وعلى انفها عوينات سود ، لقد سمعت واصلحت من هندامها ، وقالت لي انها تعلمت مهنة الممرضة قبل الحرب .

وسخر الدكتور طبعاً من رأيي الجديد في المعرفة كما سخر من قبل من رأيي في البساطة ، وكان يقول :
— المعرفة ! أليس كذلك يا يعقوب ؟ اترى اثرأ لبساطة الحياة ؟
اترى لها اثرأ ؟

والواقع اني في ذلك العهد قد تزلزلت افسكاري ، وغطى القمام عقلي ، وكان هذه الرحى الشيطانية همت ان تقف عن الطحن .
و كنا في محطة على طريق « توبولسك » فوصلت الى الطيب برقية قرأها ثم فركها وأصبح ممتقع اللون ، وقال لي وهو يدغدغ حنجرتي :
— يا يعقوب خلع القيصر عن العرش .

وهزني هذا الخبر هزاً : لم افكر في القيصر تفكيراً جدياً . نعم
لقد رددت كثيراً ان الشر كله في القيصر ، ولكني لم اكن مؤمناً
بما اقول ، بل لقد كنت ارى الشر في كل مكان ، وها انذا اسأل
نفسي :

— هل كان القيصر حقاً قائماً على رأس كل سلطة في الدولة ؟ !

اذا كان ذلك كذلك فهذا الرأس قد قطع .

اضطرب الدكتور ، وكاد مساعده او كونيغ يرقص ، ورأيت
الناس جميعاً يبتهجون ويفرحون ، اترانا وصلنا الى غايتنا ؟ اترانا
تحررنا من قيودنا ؟

نعم لقد كان ذلك حقاً ، ها هوذا الشعب يلتف على نفسه كما
يتكور القنفذ ، ويلتصق بالارض كما يلتصق الفتى الشبق بالفتاة ،
ورأيت لا يريد ان تتكرر المأساة التي حدثت منذ عشر سنوات ،
كلا ! ثم كلا !

الرجال يهربون من جبهة القتال دون ان يفقدوا صوابهم ، بل
هم على عكس ذلك ينصرفون في نظام وقد حملوا بنادقهم بل ورساشاتهم
ومعداتهم . كانوا قبل كل شيء يفهمون ما يقوله الناس ويرددون :
— نعم ... نعم ... ان هذا هو الحق المبين ، كفانا ما لقينا من
هوان ، لقد طفق الكيل .

اما انا فقد تكلمت في تلك السنة وحدها اكثر مما تكلمت خلال
ثلاث واربعين سنة كاملة . كان في صدري جرس يرن ثم لا ينقطع
عن الرنين . وشعرت بالفرحة الكبرى تعم تلك السنة الخالدة ،
ورأيت الناس يعجبون بي ومجلونني اجلالاً كبيراً .

المسافات في سيبيريا شاسعة واسعة ، والقرى منفردة متباعدة ،
ليست كما ترى في هذه البلاد حيث تدفع القرية القرية بمرقها دفعا ،
وتغص بالشوارع والطرق ، وحيث تجد في كل عشرة فراسخ بلدة ،
وفي كل مئة مدينة .

وفارقت الدكتور فقد ارسلوه الى « ار كوتسك » وعشت في
ضيعة قريية من « نيقولايفسك » ،
وفجأة داهمت الضيعة كوكبة من الفرسان ، وجعلت تصيد
الاورام :

— هيا الى الحرب ... هيا الى الحرب ...
ولكن من نحارب ؟ ولماذا نحارب ؟
وقال ضابط ذو شعر جعد ، وجبهة عريضة بدة نيكولايفسك اناسيا
— نحارب موسكو ، لقد استولى اجراء الالمان على الحكم فيها .
وحدثنا حديثا طويلا يدل على ذكاء وادراك ، ولكن الفلاحين
ترددوا في تصديقه ، وفي سيبيريا لا يحب الناس موسكو .
وقد تشكى الفلاحون وتململوا قليلا ثم سافروا .
ومع ذلك فقد استطعت أن أقنع عشرين منهم بالبقاء ، وقلت لهم :
— هذه حرب لا تفهم لها مغزى ، ولا تعرف من اوقد نارها .
تعالوا نهرب الى الغابات ايها الفتيان ، وننتظر هناك ، حتى تتبين
لنا جهة السادة وجهة الشعب .
وجاء فتيان من اقصى المدينة يتسعين ، وكانها هبطا من الغيوم ،
ويقولان :
— ان هذه الحرب التي تدعون اليها حرب على الشعب ، انكم

تساقون الى حفر قبوركم بأيديكم . لم تمت الافةى فهي الآن ترفع
رأسها . ايدوا موسكو ايها الفلاحون ، ان اولي الامر فيها هم
اصحاب التفكير الشريف الصحيح .

سيروا وراء البلاشفة ، واضربوا قفا السادة المستبدين . ذلك
هو واجبكم .

كان حديثها ممتازاً ، وفرح بي الفلاحون لاني قلت ما قاله هذان
الفتيان ، وفكرت كما فكرا ، وقالوا لي :
— ان رأسك نافع لنا فابق عندنا .

وجعل الكولتشاك يحددون القرى والفلاحين حصداً: المصادرات
والنهب ، وسرقة الحبوب والعلف ، وسوق البهائم والماشية ، وتراعى
الينا ان الفلاحين قد هبوا يدافعون عن اموالهم وانفسهم ، وان
العمال يؤيدونهم في هذا الدفاع .

وجاءتنا فصيلة من العمال لا يتجاوز عددها تسعة فرسان على
رأسهم سائق يدعى « افكوف » وكان شاباً اسود جاف العود طويلاً ،
اذا امتطى صهوة حصانه مست الارض رجلاه ، وطلبوا منا تأييدهم في
حرب الناهبين وهم اربعون فارساً ينهبون قرية لا تبعد عنا اكثر من
ثلاثين فرسخاً . وهب سكان القرية وهم الذين طالما لقوا اصناف النهب
والسلب فجمعوا سبعة وستين مسلحاً اكثرهم من الجنود القدماء وفيهم
بعض الشيوخ ومضوا الى القتال ، ولم يعجبني هذا الامر ، ومع
ذلك فقد تنكبت ببندقيتي وسرت ...

بلغنا القرية عند منبج الصباح ، وخضنا المعركة : لم تكن معركة
دامية ، فقد قتلنا ثلاثة وجرحنا خمسة او ستة ، وفقدنا نحن قتيلاً

واحدًا ، ووقع آخر منا في بئر فغرق ، ومس الرصاص اربعة منا
مساً غير ذي خطر ، وكنت واحداً من هؤلاء فقد اختوت
الرضا لحم كتفي .

كنت لا اعرف الرماية ، ولا استخدم البندقية ، بل انا لم اصطد
في حياتي عصفوراً ، ولكني مع ذلك فعلت كما يفعل الآخرون .
والحق ان البندقية آلة عجيبة : خذها ثم صوبها تنطلق وحدها .

وملأ النصر الفلاحين تيهاً وفخراً ، وعادوا الى قريتهم يصمون
آذان البرية هزجاً وغناء ، ولكننا لم نكد نبلغ القرية حتى رأينا فيها
جماعة من الكولتياك يعبثون بها ويرتعون ، ورأينا النار تضطرم
في موضعين من القرية ، وسمعنا ولولة النساء وعويل الاطفال . وعندئذ
ظهر لنا « افكوف » محارباً ماهراً : قسمنا فرقتين ثم حاصر القرية ،
وهبطنا على العدو على حين غرة ، وكانت معركة دامية : اما القتلى
فكانوا سبعة وثلاثين ، منا ومنهم ، وغنمنا مدفعاً ورشاشين وكمية
من الذخائر من كل نوع ، وانضم اليينا من الكولتياك احد عشر فارساً .
واجمعنا امرنا على الانسحاب الى الغابات والاستعداد للحرب ، ومضينا
اليها ونحن سبعة وخمسون فعشنا في الهواء الطلق ، وذبحنا الناس ،
وغنينا الاغاني .

لكل نط من انماط الحياة عيوبه ، وهكذا كانت حياتنا . لقد
ألفنا العيش المتشرد في الغابات والبراري واصبحنا كسالى . كنا
نلبس ثياباً بالية ملأى بالثقب ، ولكننا لم نرغب في ترقيةها ابداً ،
فاذا لم يبق سبيل الى لبسها غنمنا ثياب ميت ، ولكن الميت نفسه لم
يكن يرتدي ثياب السادة .

لم اكن محاربا ، ومع ذلك فقد غامرت . كنت اتعلم الرماية
وقنون الحرب في كثير من الشوق واللهفة ، وانا اعلم ان الحرب
عمل بهيمي باهظ الثمن . المهم في الحرب اطلاق اكبر كمية ممكنة
من الرصاص . مئات من الطلقات في سبيل عشرة قتلى ، والذين
يبقون احياء يولون الادبار . والحرب فوق ذلك عمل مؤذ لانها
تفسخ اخلاق الرجال .

كان في فضيلتنا فتى يدعى « بيير » افسدته الحرب وشوخته ،
كان اذا وقع في قبضتنا بعض الاسرى ما يزال يزعجنا حتى نقضي
عليهم . كان يطلب من « افكوف » ان يسمح له برميهم ، فلتتمع عيناه
الصغيرتان ، ويحمر وجهه . كان ظريف الملامح ، حاول المظهر ، وكان
افكوف يمنعه من قتل الاسرى ، ولكنه كان يقتلهم ويبرر عمله
قائلا :

— لم اتعمد قتلهم ابداً .
او يقول :

— رأيت جريحا ، لا مفر من موته بلعالم بلمحظا لا بد ان يمتنع

اما افكوف قائدنا فكان سوداوي المزاج ، متوقد الذكاء ،

يحب البحر فقد كان نوتيا على ظهر مركب حربي ، ثم نقى فاشتغل

ملاحا في نهر « أمور » . كان شجاعا ولكن شجاعته كما عرفنا بعد

ذلك راجعة الى جهله بقنون الحرب . كان يمضي الى المعركة متمطيا

صهوة جواده امام الجنود جميعا يبرز بندقيته كما يبرز الفارس رجه ،

ثم يكيل الشنائم الخفيفة والرصاص ينهال عليه من كل جانب . ولم

يكن يشفق على الناس :

— الشرفاء من الناس يسكنون البحر ، اما الاوغاد وحدهم
فيسكنون البر .

كان كثير الصمت ، كثير الانين ، مصابا بوجع في ظهره لعله
من اثر ما لقي في سجنه من ضرب وعذاب . كنا اذا غمنا الاسرى
ارسلهم الي وقال لي :

— يا صاحبي يا زيف . كنياس خفيف اقنعهم بالانضمام اليك فاذا
رفضوا فهددهم بالقتل .

وظفرت مرة طليعة من طلائع الاستكشاف بخمسة فرسان ،
ناقشني واحد منهم ، كان جريح الرأس والذراع ، نقاشا اعجبني
وعلمت انه ليس من عمار الناس فسألته :

— او انت سيد ؟

واعترف انه ضابط برتبة ملازم ، وان اباه علاوة على ذلك
خوري ، وقلت له :

— سيقتلونك .

كان متعجرفا ، قوي البنيان ، جدي التعابير ، مفعما بالقوة ،
دافع عن نفسه عند اسره دفاعا مجيدا ، اما نظره فكانت نافذة
طيبة على الرغم مما فيها من اسى عميق . واجابني :

— نعم ... يجب عليهم ان يقتلوني . هكذا الحرب : لا رحمة
ولا شفقة .

واسفقت عليه وخدشه طويلا ، واضررت على اقتناعه بالانضمام
اليك ، اما هو فكان لا يكف عن ستمة عامة وعن ستم قائدا افكوف
خاصة ، وعلمنا انه اوفدني مهمة هي القبض على افكوف وعصابته .

قال لي :

— ان قائدكم غبي وسيقضي عليكم جميعا .

وكان يعرف كيف يثبت بالارقام ان افكوف لا يعرف توفير رجاله ، ومسائل اخرى كثيرة ، وادركت رأساً انه مصيب وان افكوف محارب أخرق .

لم يكن هذا الضابط ، واسمه اوسبانسكي كوتيرسكي ، يهمة احد من الناس ، كان على شاكلة صاحبنا بيير ، المهم عنده ان يقاتل . وقلت له مازحاً :

— اذا كنت تريد ان تحارب ، فهيا بنا وحارب جماعةك . وحك حاجبه وسكت ، وحدثت عنه افكوف واطريته وقلت انه فقي باسل فتمتم افكوف :

— ولكن كيف نأمن امثاله ؟

وقلت له : ولكننا غير مدربين .

— هذا حق ، فنحن أولو قوة ، ولسنا أولي معرفة . حدثه ايضاً فما يزال امامنا متسع من الوقت لرميه .

وغمرت عطوفة السيد كوتيرسكي بالخمر وبالشاي ، وانا اقول له : — ان الحق معنا . اما هو فيدمدم :

— الشيطان وحده يعرف اين الحق ، قد يكون معكم ولكن الذي اعرفه انه ليس معنا .

وخلاصة القول ان كوتيرسكي قبل ان يكون مساعد افكوف ، واذا اردنا استعمال التعابير العسكرية قلنا انه : رئيس اركان حربه . ولقد بدا لنا سيداً حقيقياً ، وجعل يقوم بتمريننا تمريناً جيداً ويقودنا

قيادة حازمة ، وكم مرة لمت نفسي بعد ذلك لاني حلت دون رميه بالرصاص . وجعل اصحابنا يتذمرون ، ولكننا ظفرنا مراراً وتعلمنا حيلة ، وفهمنا ان هذا الضابط عملاق !

كان لا يتقدم الصفوف ، ولا يبدي بسالة ما ، كان ينتصر بحيلة الثعلب ، في رفق ، ويتسرب كما تتسرب الافعى في لين ، ويوفر رجاله توفيراً مجدياً ، لا في المعركة وحدها ، بل في فترات الراحة . وكان يفتش حتى الاقدام ويراقب وسخنها ، ويأمرنا بالسباحة دائماً ، ويعلمنا الرماية الصائبة ، ويرسل طلائع استكشاف ، حقاً لقد كانت لعنة دامغة ، لا يترك لنا لحظة من هدوء . وقال لنا يوماً :

— من وجدت في ثيابه قفلا جلده

واطراه الجنود الشيوخ اطراء رائعاً ، ولم يحبه الشباب .

لم نكن نتجاوز سبعة وستين مسلحاً ، ومع ذلك فقد استطاع بهذا العدد ان يقودنا الى اعمال لا تزال تصعقنا بما فيها من مهارة ، وما ادر كنا بها من نجاح .

كان بادىء ذي بدء يكثر من التحدث الي ، ولكنه سرعان ما تركني ، كان غير قادر على الفهم ، فالفهم ليس من طبعه ، وكان يكره الاجانب كالبولونيين والتشييك والامان ، ولكنه كان يشفق على الروس اشفاقاً كبيراً ، وكان قاسياً : يحك حاجبيه ويكشر عن انيابه : والسلام على الاسرى .

واصبح قائدنا بعد مقتل افكوف . كان افكوف وبيير وجندي ياباني يسبحون في نهر قرب معسكرنا عندما هاجم المعسكر عشرة

ضباط . وسمع افكوف دوي الرصاص ، فهرع اليها عوضا عن ان
يختفي في السياج ، وكان الضباط يهربون في اتجاهه ، فقتله واحد
منهم ، وكسر آخر رأس بيير فمات ، واعترف اني لم آسف عليه
فطالما ازعجنا فسادة .

ولا ازال ارى افكوف حتى اليوم ، كما رأيته يوم قتل ، ممدداً
على العشب ، طويلاً يبلغ مترين ، متصالب الذراعين ، نجمل اليك انه
يريد ان يطير ، ليس عليه غير قميصه والى جانبه خنجره ومسدسه .
ولقد آلمنا قتله جميعا ، وررع كوتيرسكي الى جانبه وزر جيب
قميصه ، وبقي راكعاً زمناً طويلاً ثم نهض واقفاً يرثيه ويقول :
— انك لشهيد عظيم من شهداء الحق ، ولقد كنت بطلاً .

ومضت ايامنا نحن المحاربين على هذه الوتيرة ، وذكر لنا الاسرى
ان الكولتشاك يبحثون عنا ويطاردوننا فقد ازعجناهم كثيراً ،
ومضى بنا كوتيرسكي ، وهو الذي يعرف كيف يحصل على المعلومات ،
الى ضواحي «نوفونيولايفسك» وكانت لنا في الطريق مقابلة مزعجة :
عثرنا على قافلة ، وغنمنا تسعة وعشرين حصاناً ، وخمس عجلات صحية ،
وتسعة اسرى كانوا مثلنا من الانصار . ورأيت في احدي العجلات
صاحبنا الدكتور الكسندر سيريلوفتش مضطجعاً ، ورأيت بين
الاسرى صاحبي البحار في «تشتينا» ، ولم اعرفه الا باصبعه السادس الزائدة .
اما الدكتور فلم استطع قط معرفته ، بل هو الذي عرفني فناداني :
— اين انت يا غلبة المصارين ؟

وتطلعت فوجدت رجلاً عجوزاً يتمدد على الارض ، متورماً ،

أصلع الرأس ، ابيض اللحية ، جامد العينين ، غير مازح ، وامرني
ان آتية بتبغ وهو يدمدم :

— هذا ثالث ايام ثلاثة لم ادخن فيها ، لعنك الله ...

وسألني وهو يشعل لفافته :

— أنت تيسط الحياة ؟

ورأيتُه رغم انه طيب ، قصير العمر ، لا يكاد يستطيع الكلام .
وسألني النوتي عن تاتانيا ، وهل اذكرها ، واخبرني انها متوارية عن
الانظار في «نيقولايفسك» وانه في حاجة اليها من اجل بعض القضايا ،
واقنع كوتيرسكي بارسال من يبحث عنها ، وبعد يومين وصلت الينا
في عجلة ، واستقبلتني في سرور قائلة :

— أنت بلشفي ؟

وقلت لها : نعم ... طبعاً .

ومع ذلك فلم اكن كثير الثقة بالبلاشفة . وجمعت تاتانيا اصحابنا ،
والقت عليهم خطاباً جاء فيه قولها : ان امور الكولتاشك مضطربة ،
وان علينا ان نضربهم ضربة عزيز مقتدر ، لنفرغ الى حياة السلم
وتنظيم المجتمع .

كانت تصرخ ، وتحرك ذراعها ، ويختلج خد من خديا وتلمع
عويناتها ، ورأيتها عجوزاً يابسة قائمة الوجه ، جائعة ينبح صوتها بناحاً ،
وصفوة القول لقد رأيتها مزعجة .

وقالت لي عند المساء : انها كانت منذ امد بعيد عضواً في الحزب ،
وانها سجنّت مرتين ، وانها لم تعرف النوتي الا منذ اشهر ثلاثة عندها
كان جريحاً في المستشفى ، ولكن هذا كله لم يكن مما يعنيني ، ثم

سألتني :

— انعلم ان مولاك الطيب قد انضم الى الكولتشاك ؟
وقلت لها عندئذ :

— ولكن ها هوذا الطيب !

واختلجت اختلاجاً ، يا للخسارة ، نحن لا نرى حركة عينها من وراء العوينات ، ويحبا انها لم تنس ولا يمكن ان تنسى ان الطيب ردها مدحورة يوم داعبته ، لقد كنت اعرف ذلك ولكنني الآن بلغت حد اليقين .

وسخرت منها وهي تؤكد لي ان الطيب عدو لدود ، ومضيت اليه اقول :

— هنا تاتانيا .

وبلبل شاربيه بلسانه ودمدم :

— اصحيح ؟

لم يقل غير هذه الكلمة ، وسهرت الى جانبه طوال تلك الليلة ، وانا اتساءل : اترأها تقاربه ؟ اترأهما يتحدثان ؟

ولكن لا ... ها هي ذي تسير بجانبه له ، وتحرك قضيباً في يدها ، ومضت مرة الى النوتي فقالت له كلمة ثم عادت الى السير كأنها حارس ليل .

دنوت من الطيب مرتين ، فخيّل الي انه نائم ، وكلمته فلم يرد علي ، وترددت في ايقاظه ، فقد كنت اريد ان اقول له شيئاً . وبدأ لي وجهه في ضوء القمر احمر ساخناً ، ونحن نعلم ان وجوه الاصحاء من الناس تبدو في هذا الضوء زرقاً شاحبة .

وانتصف الليل فها أنا متاعنا للسفر ، وسألت كوتيرسكي :
— ماذا نفعل بالأسرى ؟

كانوا ستة : ضابط بولوني ، وثلاثة جنود جرحى ، وامرأة يهودية ،
وصاحبنا الطبيب ، وكانت المرأة تحتضر وعيونها غائرة ، وصرخ
كوتيرسكي :

— وماذا تريد ان نصنع ؟

واقترح الجماعة الاجهاز عليهم جميعاً ، وغمز كوتيرسكي انف
حصانه وقال :

— استعدوا !

والكني اقنعهم بوضع المرضى على ضفة النهر وتركهم هناك ، فقبلوا
واعدم الضابط طبعاً ، اما الدكتور فاجهد نفسه يمازحني وهو
يودعني وقال :

— كان عليك ان تجعلني بسيطاً يا غلبة المصارين .
واجبته :

— ستموت عما قليل وحدك يا الكسندر سيريليفتش .
وتركته وانا عليه مشفق حزين ، طالما اثر في نفسي تواضعه
وبساطته .

وقته جندي يلقب بالياباني وصياد دبة ، تركناها في المؤخرة
دون ان نشعر بهما ، وما لبث الياباني ان لحق بنا وقال لي :
— لقد اجهزت على دكتورك ، انا لا احب الاطباء .

بل لقد اجهزنا على المرضى جميعاً بضربات العصي حتى لا يسمع
لها صوت ، وزجرتهمما وشتمتهم قليلاً ، فأخجلني كوتيرسكي ، وهو

يقول لي :

— ما عسانا نفعل لو رآهم العدو احياء ؟

وساءلت نفسي : أليست تاتانيا هي التي دفعت الياباني الى القضاء على الطبيب ؟ ها هوذا لا يملك لفافة تبغ ، واذا به بعد قليل يدخن فيطيل التدخين ، وعرفت انها لفائف صاحب تاتانيا البحار .
أتكون قد امرت بقتله رافعة به كيلا يتألم ؟ ربما ، فقد يحدث ان يقتل المرء رافعة وحنانا .

ألا ترى اني رجل رؤوف رفيق ، ومع ذلك فقد قتلت بيدي هاتين رجلا عجوزاً مسكيناً لا يملك دفاعاً عن نفسه ، اما انا فلم اقتله رافعة به ، بل قتلت له لسبب آخر .

قلت لك : اني لا احب الشيوخ ، واني اراهم مفسدين مضرين .
وطالما قتلت للفتيان منا :

— لا ترحموا الشيوخ ابداً . ان وهن عظامهم وتمسكهم بأراهم يجعلانهم غير نافعين . ان الشاب يتغير ، ولكن الشيوخ لا يتغيرون ، وسرعان ما يحتقرون من يخالفهم ، فهم يعجبون بأنفسهم ، وتراهم جميعاً يتفقون على غلط واحد من التفكيك :

« انا شيخ ؟ اذن فأنا على صواب . »

انهم رجال الامس الذاهب ، وانهم ليجزعون من الغد الآتي ، ذلك ان هذا الغد لا يحمل اليهم غير الموت .

و كنت التقي على قتياننا درساً آخر في تدبير المنزل :

اما الاثاث الضخم ، مثل المرايا ، والصناديق ، والسُرر ، فلاتكسروه ابداً ، ولا تحطموه ، ولكن حطموها كل ما هو تافه حقير ، واحيلوا

كل ما هو باطل صغير الى تراب ، فمصدر شقائنا ترهاتنا .

اجل لقد لقيت مرة شيخاً ضئيلاً ساماً كالافعى . اصببتيفوس
فتر كني رفاقي في قرية صغيرة عند فلاح صالح ، وظلمت طريح الفراش
طوال الشتاء ، وانا مريض مريض ، وفقدت ذاكرتي ، وعندما
ثبت الى رشدي لم افهم مما حولي شيئاً ، كأنني نائم منذ سنين ، وسمعت
الفلاحين يزجرون ، ويشتمون موسكو ويكيلون السباب للبولشفيك ،
ماذا حدث ؟ ولاحظت شيئاً ذا قلنسوة يضرب في القرية ، ويتو كاً
على عصاه . كان عجوزاً ضئيل الجسم ، كثير النشاط ، صغير العينين ،
تضطربان كما تضطرب الخنافس في الضياء ، نعم ان هنالك خنافس
حقيقية لها اجنحة يخيل اليك انها من حديد . وكان يلبس كما يلبس
الناس جميعاً ، ولكنهم كانوا يرمقونه ويحتمونه .

وجاء الربيع ، وبدأت اسير وارى ، لقد اصبح الناس غير الناس ،
غرباء غابسين غضابا ، ولم ار واحداً منهم تبدو عليه مظاهر الهمة
والنشاط ، وسعتهم يشكون المصادر والمفوضين ، وجعلت احديثهم
واشرح لهم الامور رغم اني لم اكن افهمها على حقيقتها .

وكنت جالساً ذات يوم وراء القرية عند المرعى ، ورأيت هذا
العجوز يتدحرج على الطريق ، ويذرع الارض بعصاه ، ورآني
فاعرض بوجهه عني ، وبصق ، فغضبت وسألت صاحب مشواي :

— من هذا ؟

— رجل صالح وذكي ، يرى خداع الناس حراماً .

وحدثني في كراهية وضيق .

وسألت شاباً من مشوهي الحرب يدعي « نيقولا رامكانوف » ،

قطعت رجله واصابع يده ، عن امر هذا الشيخ فقال لي :

— انه عجوز مضر ، يقطن القرية من زمن بعيد ، وهو منفي سياسي ، كان يملك خلايا نحل ثم ذهبت الخلايا فبنى كوخاً في الغابة ، وهو يعيش فيه الآن عيشة الراهب ، ويقعد الملاحق ويتخذ سياء القديس .

ولم تكد الثورة تنشب حتى قرع لها طبول الحرب ، وزادت نغمته حين صودرت خلاياه ، ان المنطقة تعرفه ويقصده الناس من بعيد ، من مئات الفراسخ ، فيستمعون الى نصائحه وهو يقول لهم : ان اللصوص والكفار هم الذين يسيطرون على موسكو ، ويقول لهم غير ذلك ، ويدعوهم الى المقاومة والعصيان .
وحدثني عنه فقال :

— عاد جنديان من الجيش الاحمر الى اهلها في قرية من القرى ، واجتمع الشيوخ فقال بعض لبعض :
« ان هذين الفتيين من الاشقياء ، اما احدهما فقد قتل رفاقه اباه وامه ، واما الآخر فقد احرقوا بيت اهله ونهبوه وتركوا والديه بائسين . لو تركناهما افسدا علينا ابناؤنا . فلنقتلها ليعرف ابناؤنا ان عهد الفوضى قد انقضى »

وشدوا وثاق الجمامتين ، ووضعوا رأسيهما على جذع شجرة ، وقطعوهما بالفأس .

كان العجوز يسكن على بعد عشرة فراسخ من القرية ، فوق رابية قائمة على كتف الغابة ، في كوخ صغير ذي نافذة واحدة ، وحوله حقل صغير ، فيه ثلاث خلايا ، وكليب اشعث : تلك هي ثروته .

كان النهار لا يزال منيراً حين دخلت عليه بيته ، ورأيت العجوز
جالسا فوق جرثومة شجرة قرب النار ، وفوق النار قدر تغلي
وتضطرب في جوفها قطع من خشب ، وجعل يقذ الملاقق ولا ينظر
الي ، كان يرتدي ثوبا من قنب ، ازرق ، حافي القدمين ، تلمع صلته ،
وتنتصب فوق اذنه اليمنى بثرة كأغما هي جنين رأس آخر ، ولقد
ازعجتني هذه البثرة الصغيرة على الخصوص .

قلت له : جئتك أحدث اليك

— قل

سكت ، وجعل يدير سكينه في سرعة أطارت قطع الخشب على
ركبته وقدميه ، وكانت هذه القطع رطبة لا تحدث صوتاً كأنها
قطع من السمن الجامد ، والماء يغلي في القدر ، والكلب يعوي
ويلتصق بالعجوز ، ومع ذلك فقد شعرت ان كل ما حولنا ساكن
صامت .

ثم سألته :

— علام تدعو الناس الى العصيان ؟ ما تعتقد ؟ وما تريد ؟
وظل صامتا مطرق الرأس ، لا يرفع عينيه ، كأن ليس من
أحد امامه ، والخشب يتطاير ، وهو اصم ابكم ، والكلب المسكين
أصبح كالزمار من كثرة ما عوى ، والعجوز لا يحاول ان يسكته ،
وبقي جالسا يعمل كأنه ليس الا يدين تتحركان وكنفاً تضطرب ،
واما ما تبقى منه فتمثال من حجر ازرق .

كل شيء حول هذا الشيطان الاشبط هادى وجميل ، والغابة
وراء الكوخ تفيض بالشذا والعطر ، وامامنا واد ينحدر ليشرب من

غدير جار ، والشمس تلعب .

وفكرت في نفسي قائلاً : ما احسن هذه الصومعة التي اخترتها
لنفسك ايها الساحر العجوز .

غضبت وأسرفت في اهائته وتهديده فلم انل منه شيئاً ، ولم
ينبس ، فغادرته كالأبله ، وتلفت الى الكوخ بعد ان فارقت ، فرأيت
النار تلمع وقلت :

— يا له من عجوز مضر .

وقال لي صاحب مشواي بعد يوم او يومين ، وهو مطرق الرأس
الى الارض كأنه ثور يهم ان ينطح :

— لقد شفيت يا كيتيازيف ، فسر الى عملك .

وعرفت سره : لقد حدثه العجوز عن زيارتي ، فأقبل يطردني ،
ورأيت امرأته وكنتيه وخادمه ، وهو الماني ، يرمقونني شزراً ،
ويغلظون لي في القول ، واصبح من في القرية كالثيران ، وهم الذين
كنوا يتطلعون الى حديثي في شوق ولهفة .

وقلت لنفسي :

— انا وحيد ، ودفني في قبر من تراب سهل هين ، وليس من احد
يحزن علي ، بل من ذا الذي يرثي اليوم لاحد ؟ وجعل قلبي يغور ..
وذهبت الى راسكاتوف :

— دعني أختبئ عندك يومين او ثلاثة ايام
واستأذنت صاحب البيت بالسفر كما يليق ، واظهرت اني اغادر
القرية عند منبج الصباح ، وتواريت يوماً ويومين وثلاثة ايام في
حماماته ، فلما كان اليوم الرابع لبست ظلام الليل ومضيت في طريقي ..

كان لي مسدس فبعته لراسكاتوف ، ان المسدس اداة خطيرة
على مسافر منفرد لانها تفضح نخط حياته ، وهكذا جعلت من حجر
مربوط في منديل سلاحى الوحيد .

بلغت منزل الشيخ فطرقت الباب ، وانا اظن انه يرى في زيارة
الزائرين ليلا امراً عادياً ، وانه لا يخاف ، وشق الباب وقد وضع
يده فوق المزللاج ، وسرعان ما وضعت رجلى في العتبة ، ولقد
اخطأت ، فان الشيخ فهم انى غريب ، فدمدم وهو لم يكذب يستيقظ :
— من انت ؟ وماذا تريد ؟

وانشب الكلب انيابه في ساقى ، وعندئذ ضربت يد الشيخ بيدي
وضربت فك الكلب بقدمي : وانا أعلمك : اذا ازعجك كلب
فاضربه تحت حنكه من تحت الى فوق ، وانا ضامن لك ان تفصل
رأسه عن عموده الفقري بضربة واحدة ...

دخلت الكوخ واغلقت الباب بالمزللاج ، والعجوز يدمدم خائفاً :
— ما فعل لك الكلب ؟

واشعل الثقاب ، كان علي ان اضربه في تلك اللحظة ، ولكن
ليس القتل سهلاً الى هذا الحد ثم انى لم اكن ارى شيئاً ، واشتعل
المصباح ، ولم ينظر الشيخ الى خوفاً او تغافلاً ، وكنت انا خائفاً
ايضاً ، وساقاي تضطربان ، وازداد خوفاً حين نظر الى من جانب ،
ثم تراجع فجلس على مقعده معتمداً على مرفقيه ، صامتاً توحى عيناه
الكبيرتان الرحمة والحزان ، والحق انى اسفقت عليه ، والحق انى
قلت له :

— والآن ... لقد انتهت ايامك ايها العجوز
ولم تطعني يدي ولم ترتفع .

ولجلج في حديثه وتمتم :

— لست خائفاً ... ولست على شيء آسفاً .. ولكني ارثي للناس

فلن يجدوا بعد موتي من يحمل اليهم السلوان

— أهذا الخداع تسميه سلواناً ؟ اتريد ان تصلي ؟ ..

ور كع على ركبتيه وعند ذلك ضربته ، كان هذا مزعجاً حقاً ،

واوجعني قلبي ، واختلج جسدي ، وشعرت اني وحش مفترس .

كدت اكسر المصباح واحرق الكوخ ، ولو حدث ذلك لهرع

الى النار رجال القرية وقبضوا علي في الغابة ، وانا الذي لا اعرف تلك

البلاد ، ولكنني لم افعل ذلك بل اغلقت الباب وسرت الى الغابة ،

ولما طلعت الشمس كنت قد قطعت عشرين فرسخاً فتمت ... ثم

استيقظت فوجدت حوالي عشرة من جنود الجيش الابيض ينظرون

الي ويصرخون :

— جاسوس ... الى المشقة

وجعلوا يضربونني ، فقلت لهم :

— علام تضربون ؟ ولم تصرخون ؟ ان البلاشفة لا يبعدون عنا

اكثر من فراسخ سبعة . تركتهم هناك في سفح هذا التل ، وهم زهاء

مائة وخمسين فارساً ، لقد ارادوا ان انضم الى صفوفهم فوليت

الادبار ...

وخافوا وصدقوني ثم سألوني :

— وما هذا الدم على قدميك ؟

— وكيف لا يلطخ الدم قدمي ، وقد كسروا عندهما جمجمة

رجل بعضا ؟

خدعتهم وارعبتهم فساروا مسرعين وحملوني معهم ، وانفقت عليهم بضاعتي ، بضاعة التغايي في الساعات الحرجة ، وهي عادة طالما اتقذنتني .

ولم تكذ ترتفع الشمس حتى كنت لهم مساوياً .
يا للناس ، ما اغباهم حين تعرفهم : انهم بهائم في كل مظاهرهم :
في مشاغلهم ، وفي مبادلهم ، في آثامهم وفي قداساتهم .
ألم تر الى ذلك العجوز ؟ .. ولكن كفانا حديثاً عنه ... ولست اريد ان اذكره ... ومع ذلك فانا اقرر انه كان عجوزاً جلدأ ...
نعم ان الناس بهائم .. فعلام هذه الضجة وهذا البهران ؟ انهم يطلبون اموراً فوق العادة ... ويجهلون ان سلامتهم في البساطة .
اما انا فقد لقيت ما كفاني من مثل هذه الخوارق ، لو كنت لا اعرف كيف يجب ان اعيش ، ولو كنت مؤمناً لسألت الله ان يخلقني قنفذاً اسعى في سرايب الارض ... أرايت كم تأملت ؟ !
والآن ، لقد انهار هذا البنيان الذي اقامه الشيطان منذ قرون ،
وها هو ذا يهوي خراباً يباباً ، وارجو ان ينظم الناس عن قريب امورهم في سهولة وفي يسر : لقد فطن العالم كله الى ان حكمة الحياة تعتمد على بساطتها ، وان علينا ان نكنس بعيداً وبعيداً جداً كل ما لنا من خصوصيات قاسية ... ان الشيطان هو الذي اخترع ما فوق العادة ونصبه لنا فخاً لنقع في حباله فريسة رخيصة ...
أسبعت يا صديقي ؟ .

حکایت



حكاية

— ١ —

عندما جس الطبيب الأشقر ذو الانف الكبير ، باصابعه الباردة جسم بيكوف وصرح جازماً أجش الصوت ، ان داء المريض أصبح خطراً لانه أهمل علاجه ، شعر بيكوف بغیظ شديد يستولي على نفسه ويملاً قلبه ، انه مثل ذلك الغیظ الذي كان يشعر به في أيام شبابه اذا خاب أمله في ورقة يانصيب ، أو مثل ذلك الغیظ الذي استبد به ذات ليلة من ليالي الحرب الروسية التركية ، حين قضاها كلها محتبئاً بين العوسج في بساتين « عين الفرجة » مكسور الساق ، يفصله المطر الاسود ، وينتزع الألم لجه عن عظمه انتزاعاً بطيئاً .

— اذن فساموت .

وجلس الطبيب وراء المنضدة يهيم بالكتابة ، ويجرب قلعه الصدى ويدندن بكلمات مبهمه ، ولم ينظر اليه بيكوف ولا اصغى الى قوله غيظاً وحقدآ ، بل تطلع من النافذة الى الشارع : الريح تكنس الارض ، وتطارد الريش والبراية والغبار .

— عمري تسع واربعون سنة .

— لقد أسرفت في الشراب .

وشتم المريض الطبيب في سره وقال :

— هذا ليس بسبب ، كثير من الناس يشربون ثم لا يموتون

عبطة .

وثار عقله على الموت :

— انظر قليلا : هذه دجاجة. انها تعيش وتبيض وتحضن بيضها حتى

يفرخ ، وأنت أنت ايها الانسان تموت !! لن يجديك تعبك في حياتك القاسية شيئا .

وقام فشييع الدكتور الى الباب صامتاً ثم عاد خفيف النعل خفيف الثياب ، ومر بالمرآة فتطلع الى وجهه فيها : وهذه المرأة مالها تعكس صورته في وضوح غير عادي : وجه نحيف تبدو عظامه ، عيانان خضراوان حزينتان ، لحية طويلة وخطها الشيب تسقط شعرانها على صدره ، ما أبشع هذا المنظر .

وتنهّد بيكوف ثم جلس على مقعد جلدي قرب النافذة فنفخ وزفر وشعر في خاصرته اليمنى بالم حاد يثقب كبده في غير هوادة ، وينهك قوى جسده ، ويملاً نفسه ضغناً مريراً .

— أسرفت في الشراب... أسرفت في الشراب ، وأنت أيها الابله

ما تشرب ؟ وبم تتسلى ؟

هكذا كانت صرخة بيكوف حين صعد الدكتور الى العجلة .

ووقفت عند عتبة الباب امرأة بدينة ، بليدة ، هي الطاهية آجاش

وقالت : هل آتيك بالسماور ؟ فصرخ يشتمها :

— كم قلت لك يا ذات الشدق الاحمر : لا تضعي المقعد قرب النافذة ،

أرأيت كيف تغير لونه ؟ أتظنين ان الشمس لم تخلق الا لافساد
الاثاث ؟

وقالت آجاش في جراءة :

— انت الذي غيرت موضع المقعد .

وتذكر بيكوف عندئذ مقدار ما بذل من جهد في جر المقعد
الثقيل ، فزادته هذه الذكرى مرفقة بهدوء العجوز غيظاً على غيظ .
— اغربي عن وجهي .

ومضت العجوز فأتبعها نظره وهو يفكر :

— هذه العجوز ستعيش اربعين سنة اخرى ، اما انا فيجب ان
أموت . وثروتي ؟! لقد قضيت حياتي كلها في سبيل جمعها درهماً
درهماً ، وغرقت في عملي فلم أجد وقتاً أتزوج فيه . كنت استطيع
الزواج بعد انتهاء الحرب ، ولكن الحيلة حالت بيني وبينه ، ولو
تزوجت آنئذ لكان لي اليوم ابناء كبار ... ولكن ما أدراني ان
حياتي ستكون قصيرة ؟ ..

واطرق برأسه وقال متضرعاً في صوت عال :

— يا رب ... يا رب .

كان أكثر ما يغيظه ويزعجه ان لا يجد احداً يخلف له ثروته ،
وانها لثروة بذل في سبيل جمعها عشرين سنة من الجهد والحيلة .
أيتروكها الى الدير ؟ ايتروكها الى مشروع خيري ؟ كلا ثم كلا ، ان
عقله يأبى ذلك وينكره . لقد عرف بيكوف معرفة يتقن ان الكهان
والرهبان ومن لف لفهم ، ممن ينصبون انفسهم أولياء على خيرات
الله في الارض ، وربما جاوزوها الى السماء ، ليسوا ممن يشق بهم

الانسان كثيراً ، وانهم يحملون على ظهورهم من الاثام . مثل ما
يحمل على ظهره ، ثم ان صلته بالله لم تكن على ما يرام ، فقد كان
يحدّره ولا يطمئن اليه . كان يشعر بيكوف دائماً ان الله مطلع على
اعماله ، عارف سره وعلنه ، مراقب له ، وانه طالما عرقل سيره وحال
بينه وبين اطعامه ، هذه الاطماع التي تقوم عليها الحياة ولا تستغني عنها .
كم مرة دبر بيكوف أموره ، وهياً كل شيء ، ولم يغفل شاردة
ولا واردة ، ولكن ها هو ذا يحس في اعماق نفسه بعود من الثقاب
يشتعل ، وبخيطة من النور يبص ، واذا بالحياة تدب في الافكار
القائمة الغائبة ، واذا بالخوف من الاثم يستيقظ في نفسه ، واذا بالخشية
من العقاب تنبض في قلبه ، وتثير فيه نوعاً من الشعور كأنه الاشفاق
على اولئك الذين استطاع بيكوف نفسه ان يحدّهم وان يستنزف
دماءهم .

وفهم بيكوف ان هذا البصيص من الوجدان ليس من عمل
الشیطان ، وان الله هو الذي يبعث به حين يضطره على الرغم من
عقله ، الى ان يرحم اخوانه من الناس ، حين تكون مهمته ان يظفر
بأموالهم ، وفي مثل هذه الاحوال يقول بيكوف في حزن وتهكم
لو كيل اعماله وامين سره « كيكين » الاحدب الخجول صاحب
العنين العصفوريتين :

— ولماذا اشفق على الناس وهم لا يشفقون علي ؟ لم اعرف واحداً
منهم احسن الي .

ويقول له كيكين :

— الشفقة غباوة ، ما في ذلك شك .

وتذكر كيكيين فتناول عصا مكنسة ثم قرع بها السقف ،
وتسلل الى الغرفة بعد دقيقتين او ثلاث دقائق احذب ضئيل الجسم في
غير ضجة . كان ذا فخذين مفتولتين اذا تشابكتا في مشيه خيل اليك
انهما لولبان

وسأل الاحذب بيكوف وهو يغمره بعيني دجاجة مريضة :

— ما الخبر ؟

— يظهر اني ساموت .

— لعل ذلك غير صحيح .

— بل هو صحيح .

— لقد تعجل الموت .

— نعم لقد تعجل ، ولكن سيان على ان اموت عاجلا او

آجلا ما دمت غير قادر على رد الموت عني ، وانا كما تعلم ، جندي ،
ولكن الذي يهمني هو ان اعرف ماذا افعل بثروتي ؟!

وقال الاحذب ، وهو يصب الشاي ، ويدق الارض برجليه :

— ثروتك يرثها قانونياً ابن اخيك يعقوب سوموف .

وصرخ بيكوف في غيظ هاج عليه ألمه في خاصرته :

— ولكنه في الدرجة الثالثة من الوارثين ، ثم اني لا اعرفه «

ولم اره منذ خمس سنوات .

— هذا حكم القانون

— القانون ؟ !

وصرف باسانه ، والقي في وجه صاحبه شتيمة مخيفة ، فقال له

كيكيين ناصحاً في فتور :

السماك يضيفون شيئاً من ملح البارود حتى لا يتفسخ ، والمرض تفسخ .
كانت في حديث يعقوب ملاحه مدهشة ، وانسابت كلماته مثل
حبات الرمال في الشاطئ . تجرف حذر بيكوف الذي اوحاه اليه
شباب ابن اخيه :

— أنى لك هذا ؟

وقص عليه يعقوب في رضا ، كأنه يتحدث الى صديق قديم ،
انه لقي شاباً مثقفاً ، وصياداً ممتازاً ، علمه فاحسن تعليمه ، وان .
هذا الشاب انتحر في الخريف الماضي .

— ولماذا انتحر ؟

— لقد أحب فشقي بحبه

— ولكن الانتحار جنون .

— كان مستقيماً . . .

— كيف ؟

— كان مستقيم العواطف .

— اوه !

وفكر بيكوف : « يا لك من صبي مضحك ثرثار . . ولكنك صغير » .
وانقضت فترة غير قصيرة في حوار سهل ممتع ، والقي سوموف
نظرة الى ساعة الحائط ، واعلم ان عليه موعداً في الكنيسة للتمرن
على الغناء ، ثم سلم في رعاية وحشة وانصرف .

وتمدد ابجور بيكوف فوق متعده وجعل يفكر :

ان الحوار الطويل يزعجه دائماً . وعلام الحوار ؟ انت تعرف
مباشرة ما يريد منك الناس ، وتعرف مقدما ما تريد من الناس . املا

هذا الولد فنسيج وحده ، انه ما يزال صبيًا ولكنه لم يعلن انه له قريب ولم يدعه عمه على الرغم من انه يعرف تماما ان ليس له قريب غيره . أترى ذلك محسوبا ومقررأسلفا ؟! ما يظن بيكوف ذلك ، فلم يبد على وجه الفتى ما يفضح سريره .

وعاد كيكين الى بيكوف متعبا يكده العرق ، كان في الخزن يسلم دفعة من القنب ، وجلس الى المنضدة ثم سأل :

— هل جاء ؟ — نعم — وما رأيك فيه ؟

— هل تستطيع معرفة طوية الانسان من نظرة واحدة ؟ ومع ذلك فقد كانت اسرته راضية مطمئنة .

وجلس كيكين يشرب الشاي ويقضم الخبز ، ويبلع اللحم ويصفي الى حديث سيده المفكر :

— انه يجب ان يحمل الى الناس شيئا من السلوان والعزاء ، وهؤلاء الذين يحملون لهم السلوى مكرة خادعون ، لا اثق بهم ولا احبهم . ليس الحنان فضيلة عندي ، فقد عاش الناس وما يزالون يعيشون وكأن الله خلقهم لكي يسخر بعضهم من بعض ويذأ بعض ببعض . وقال الاحدب يوافقه :

— كل هذا صحيح .

ونسي الاحدب حين قال ذلك انه كان طوال حياته موضع سخرية الناس لانه ذو عاهة .

— نعم ان الشيطان يغويننا ويشترنا فينفر بعضنا بعضاً كأننا الديكة ، وهو ممسك بكنتا يديه خاصرته يخشى ان يقتله الضحك علينا اذا ما نحن اخطأنا ، والله فينا سر خفي لا نعلمه . ان الله مثل رئيس الشرطة

يرى منظر المتشاجرين ويسمع شتائمهم ، ولكنه لا يتدخل في امرهم ، ولا يقول لهم شيئا .

وكان حديث بيكوف حديث المغيظ المحنق ، ثم اغمض عينيه وسأل صاحبه :

— ما اخبارك عنه ؟ عن يعقوب ؟

ووضع كيكين ملعقة من العسل على قطعة من الخبز ، والتفت هو وكرسيه نصف التفاتة وقال :

— اخبرني معلمه تيتوف انه ولد نشيط ، وانه ربما غلب عليه هواه — وكيف ذلك ؟ !

— لم يستطع تيتوف شرح ما يعنيه ، ولكنني فهمت مع ذلك ان يعقوب يحب ان يصنع اكثر مما يطلب منه ، وان يهتم بما لا يمتسه ، وسألت عنه شماس الكنيسة فاثني عليه ثناء عاطراً ، ولكننا لانستطيع ان نصدق ، فهو صديقه وهما في الصيد مشتركان .

وسألت عنه صاحبة البيت فقالت : انه لا يشرب الخمر وحده ، وربما شربها مع اصحاب له ، وذكرت انهم ليسوا باولئك : فهم عمال يلحمون الحديد في معمل كوتونوف ، وصانعو اقفال ، وحلاق .

— حسنا ، انه لا يستطيع طبعاً مرافقة الحاكم .

وقالت : انه لا يأتي بالنساء الى غرفته ، وانه يحب النظافة والنظام ، وانه طيب .

— طيب ؟ — نعم .

— ذلك طيش الشباب ، اذن فهو يعرف انك تسأل عن امره
وربما اكتشف سر دعوتي ؟ !

— ما اظن ذلك ، فقد كنت حذراً .

وسكت بيكوف يفكر :

— ما العمل ؟ ذلك قدر ما استطيع محوه ، وعلي ان ارضى به .
سل عنه وزدني من اخباره ، وادعه الى زيارتي ، فقد نسيت ان ادعوه .
وصرخ بيكوف في اشمزاز اسود كريبه :

— لا ... لا ... تصور اثر ذلك في نفسي ، تعبت وتعبت ،
وحملت الآثام على ظهري ، وعلام ذلك كله ؟ وفي سبيل من هذا
كله ؟ في سبيل رجل غريب ، في سبيل صبي احمق .

وقال الاحدب مقتنعا بصواب سيده ، وغمز بعينه المستديرتين :
— يا لها من حكاية مزعجة .

لعل الداء كان واقفاً ينتظر اذن الطبيب فلم يكذب يشير اليه حتى امرع الى المريض ، فاستد وجع خاصرته ، واضطرب عقله ، واصبح يخيل اليه ان في كل خلية من خلايا جسده ديداناً من القلق والحقد تتحرك دون انقطاع وتتولى دون هوادة .

وسأله كيكن مرة :

— كيف الحال ؟

— عسير علي ان اشرح لك حالي ، هذه هي المرة الاولى التي اموت فيها ، ولهذا فأنا لم أعود الموت .

كان يحب السخرية ويعرف كيف يتهمكم ، ولقد أفاده هذا اللون من العبقرية في عمله ، فاذا جاءه الذين خدعهم يولومونه ويشتمونه قال لهذا او لذاك :

3 — لم اصنع غير ما كتبه الله لي ، ولم تصنع غير ما كتبه الله لك . اما الان فهو لا يقدر على التهمكم ، وما قوله هذا لامينه كيكن البقايا عاداته القديمة ، وهو الذي لم يكن ليتناول كيكن من قبل بغمزاته .

وقضى اياماً طويلة يتمدد على مقعده ، ويسند رأسه الى الزاوية التي فيها الايقونات ، ويحس شيئاً فشيئاً ان ذهنه يحف وان افكاره

تنضب وانه يصبح اجوف فارغاً كالجلجل لا ترن فيه غير فكرة
واحدة :

— اموت ... لماذا اموت ؟!

وحاول ، كي يحقق هذا السؤال ، ان يتذكر ما نسي من الادعية
والاوراد ، واستطاع بعد لأي ان يردد :

— يا رب ... يا قادر ... قني عذاب النار ، وارفع غضبك عني
واحفظني من همزات الشياطين ... آتاء الليل واطراف النهار ...
وكان ، وهو يدعو ، يحس ان كلماته لا تقربه الى الرضا بقضاء
الله والتسليم لامره ، بل هي على عكس ذلك تذكره بموته عبطة
قبل الاوان ، فتزيد حقه ناراً وغيظه توقداً .

ونفض من مقعده فالتقى على كتفيه رداءه ومضى الى النافذة فمر
بالمرأة ، وانعكست على صفحة هذه المرأة صورة شبح طويل هزيل
لانسان سجين : وجه فاحم ، وعينان زائعتان ، وحية وخطها الشيب ،
واخذ من على المسند مشطاً وجلس يصلح شعره ، وينظر الى الشارع
والمنازل ، وقد أحاطت بها الحدايق الغلب ، وبدت القصور في قلب
هذه الحدايق قوية متينة تتحدى القرون : الشارع صامت مقفر ،
والحر شديد ، والسادة ، اصحاب هذه القصور ، هجروها الى البرية
يصطافون ، ولم يبق امام الابواب الا البوابون .

كل شيء هادى ساكن الا هذه العصافير المنهمكة في عملها
ترقق وتغني ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع الحيلولة بين بيكوف
وبين تفكيره في ظلم الاقدار :

أهكذا تثبت الدهر وتصمد لصروف الزمان هذه القصور ذات

اللاس العميقة الضاربة في احشاء الارض ، هذه الاعشاش البشرية التي صنعها الناس من القرميد ، أهكذا ترفع رأسها شاحخة أمداً طويلاً ، اما هو ، اما الانسان الذي بناها ، ووهب للارض جمالها بيديه ، فقد حكم عليه ان يموت ، وان يموت في امد قصير . ولماذا حكم عليه القدر بالموت العاجل : وهو هو ابجور بيكوف ، الذي يحمل وسام سان جورج بدرجة فارس ، والذي هو تاجر من الطبقة الثانية ، لماذا حكم عليه القدر بالموت قبل ان يبلغ عمره نصف مائة من السنين ؟ أهو اكثر من الناس آثماً ، ولكن هل يحدد اقرار الذنوب والآثام اعمار الناس ؟

وربما شعر المريض بشيء من الراحة والطمأنينة في الاماسي التي يزوره فيها يعقوب ، كانت احاديث ابن اخيه تنتزعه من احضان افكاره السود انتزاعاً ، وتوقظ في نفسه تطلعاً حاداً وفضولاً غريباً ، انه يريد ان يعرف هذا الصبي ويحرص على فهمه ، هذا الصبي الذي كتبت له حياة طويلة هادئة غنية ، سيعيشها على حساب غيره ، ولن يضطر فيها الى ارتكاب المعاصي واقرار الذنوب ، ايكون لحسن حظ هذا الصبي الغرير سبب ، ام ترى ذلك حماقة من حماقات القدر جائرة ومضحكة في آن واحد ؟

وكان حديث يعقوب غاية في اللذة والطرافة ، وبيكوف يصغي اليه في سرور وفي دهشة ، هذا الحديث مزيج فوق العادة فيه الحماقة وفيه الذكاء ، ولذلك فلم يستطع بيكوف ان يحكم على ابن اخيه حكماً نهائياً رغم أنه كان كثير الرغبة في ان يسرع في الحكم عليه . وطالما سأل بيكوف نفسه :

— اتعود حماقته الى اصل طبيعته ام الى سورة شبابه ؟

ويظل يصغي الى يعقوب وهو يقول ويتسم ابتسامة المفكرين :

— اذا شئت ان تحيا كما يحيا الناس جميعاً مللت ، واذا شئت ان

تحيا على غير شا كلتهم تعبت .

ويجيب بيكوف :

— هذا صحيح ، ومع ذلك فالناس يختلفون .

وأزعجه ان يرى هذا الغلام الجميل مصراً على فكرته ، وان لا

يستطيع هو بيكوف ان يجد ما يرد به على هذه الفكرة :

— كلا بل هم متشابهون في صميمهم .

— وما هذا الصميم ؟

— ان صميمهم قائم على رغبتهم في ان يعيش بعض على حساب بعض .

وسكت بيكوف ، وجعل يعبث بلحيته ، ويرقب صاحبه ،

نعم ان ابن اخيه مصيب ، انه هو ايضاً سيعيش على حساب غيره ،

على حساب عمه الراحل بيكوف .

ولكن... أيعرف يعقوب هذا الامر ام لا يعرفه ؟

ان كان يعرفه ثم يتحدث فيما يناقض مصلحته فهو اذن ابله .

وان كان لم يعرفه حتى الساعة فهو كذلك ابله .

وأراد بيكوف ان يكتشف مزية يعقوب الاساسية فقال له :

— الحياة كفاح يا صاحبي وقانونها : لا تتشاءب ، وهو قانون

سهل .

— هذا صحيح ، ومن هنا كانت النكبات .

— ولكن لا سبيل الى الخلاص من هذه النكبات .

وسكت يعقوب وابتسم .

لقد شعر بيكوف ان هذه الابتسامات التي تملو وجه ابن اخيه
الانثوي ليست في مكانها ولا في زمانها، وانها غير نافعة، وانها تحمل
في طياتها طواعية مزعجة ، وقال في نفسه وهو يدقق النظر فيه :
— يظن انه ذكي .

وربما شعر بيكوف بضيق اكثر حرجا حين كان يرى يعقوب
يقطع الحديث ثم يصمت ويخفض عينيه فيعبت بملعة الشاي، او يشتغل
عنه بزر ردائه ، ويتخذ سياء رجل يعرف اشياء كثيرة مهمة، ولكنه
يضمن بها على غير اهلها .

واثاره هذا الصمت مرة ثورة جاححة ، فصاح ، وصوته يتهدج :
— الا تفهم ما اقول ؟

واجاب يعقوب في ادب جم وفي شيء من الخجل :

— بلى لقد فهمت ، ولكنني ارى ما لا ترى .

— ولماذا ؟ — لي غير هذا الرأي .

— وما رأيك انت : حدثني ، ناقشني ، تكلم ولا تسكت .

وقال يعقوب في مثل ادبه السابق :

— لا أحب المناقشة ، ولا أعرف كيف اناقش ، وانا ارى ان

المناقشات لا تؤدي الا الى شيء واحد هو زيادة الخلافات .

— اذن فأنت تريد ان يسكت الناس ؟

واستمر يعقوب في شرح فكرته كأن لم يسأله احد :

— لا يناقش الناس الناس ليكشفوا عن الحقيقة، بل ليخفوها .

الحقيقة البسيطة التي يعرفها الناس جميعا هي : كونوا في براءة الاطفال :

أحبوا للناس ما تحبون لانفسكم ، ومن العار علينا أن نناقش هذه الحقيقة .

وقال بيكوف متقرزاً :

— ياله من ساذج .

وضحك ضحكة خبيثة وهو الذي يعلم ان الضحك يزيد وجعاً ،

ثم قال :

— وهل تعيش انت كما يعيش الطفل ؟ هل تحب اخاك

الانسان ؟ آه منك . منذ لحظة قلت ان الحياة كفاح وحرب ، وانت الان تقول غير ما قلته آنفا .. وارى ان رأسك لا يكاد يستقيم

ولم يؤخذ يعقوب بسخرية عمه ، بل تابع قوله في عناد حلو :

— هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها ان ننقذ الحياة بما

فيها من آلام ، وعلينا ان نوجه افكار الناس في هذه الطريق :

— اية طريق ؟

— ان نعيش كما يعيش الاطفال .

— ولكن الاطفال ايها الاحمق لا يساويهم احد في عربدتهم ،

وطيشهم ، ألا تعرف هذا ؟ انظر اليهم كيف ينقض بعضهم على بعض

كأنهم الوحوش .

وسكت يعقوب وابتسم .

واراد بيكوف ان يقذفه باهانة ، ولكنه تمالك نفسه وقال في

زفرة من زفرات الالم وفي صوت اجش :

— دعني الان ، فانا متعب .

وجلس عند النافذة يتطلع الى الغيوم الحمرة تضطرم كالنار فوق

البساتين وغرق في تأملاته :

— صبي غامض .. رأسه يغلي .. ولد مبهم .. لا نستطيع ان نجسه ولا يترك لنا طريقا الى جسده ، يا رب ! يا رب ! ما اكثر ما في العالم من اسرار ! انه يتناول طعامه في بطنه ، وفي هذا دلالة خبيثة ، فالكسالى يأكلون في مهل ، وهو ايضا يأكل قليلا : يلتقم لقما صغيرة كالسادة ، ثم يمضغها مضغاً جيداً كالشيوخ ، رغم ان اسنانه قوية سليمة ، وهو دائم التفكير ، وعلام يفكر الشباب ؟ وفيم يفكر ؟ وهو يمشي على مهل كأنه يمشي في ارض لا يعرفها ، وفي وجهه ملامح « فتاة جميلة » وله لا عزاره لكان وجه امرأة حقا ، وهو يريد ان يعيش كالاطفال ... يا له من ابله ، بل لعله غير ابله ، لعله انسان رخو القلب ، هش النفس ، لم تعرفه الحياة ولم تمخضه ، ولم تشد على قلبه ، يا له من فتى غريب ، انه يرجو ان تتقضي حياته دون ان يظلم الناس الناس ، ودون ان يظلموه ، ويرجو ان ينصرم عمره دون ان يرتكب مأثما او يقترب ذنبا ، وليس في مثل هذا الرجاء شر ، ولكنه امر محال .

واستعرض بيكوف حياته القاسية الماضية ، فاشفق على نفسه اشفاقا فاض فغمز قسم منه ابن اخيه :

— انه يعرف ان الحياة على غير غلط الناس امر عسير ، وعليه ان يفهم ان الزبدة لا تكون حيث لا تكون الاثام ، والا كان الحساء غير ذي دسم ، والعمل غير ذي جمال ، كل انسان يتحنى ان ينام فوق سرير ناعم ... ومع ذلك ارى ان يعقوب لطيف ، وان في عروقه نقطة من دم آل بيكوف .

ودخل عليه كيكين فقال له :

— اما وارثي فليس ذاهمة ، ولكنه ساذج طاهر ، انه يريد ان يعيش كما يعيش الاطفال ، اسمعت طوال حياتك مثل هذا القول ؟

— ورد ذلك في الانجيل على لسان السيد المسيح .
وزجر بيكوف زجرة ولمس خاصرته الملتهبة وتمتم بين اسنانه :
— اما المسيح فابن الله ، واما انا فابن ايفان بيكوف ، انا ابن فلاح .. عليك ان تميز بيننا ... المسيح لم يبع قشور القنب وحائلته كما بيعت ، ولم يعيش في الزمن الذي اعيش فيه . واخذته الحماسة فجعل يضرب بيده على ذراع متعده :

— اذا كنت تحب ان تعيش كما عاش السيد المسيح ، فانزع عنك ثيابك ، واخلع نعليك ، وامض في خرقك البالية ، حافي القدمين ، واحلق وفرتك احلقها ...

واتعبته حماسه فمسح وجهه وسكت . ثم قال في صوت حزين يعاتب كيكين :

— وانت ايضا تسخر مني .. تقول لي : المسيح ، المسيح ، ولكن المسيح والاحدب اثنان لا واحد . اسمعت : العسافير ترقزق وستظل ترقزق ... اما انا فساموت ، ان المسيح لم يشعر بمثل هذا الشعور . وقال كيكين عرضاً :

— ولكن المسيح شكا ألمه في بستان المعصرة ذات يوم .
وانبسطت أساريو بيكوف فتابع في حماسة :
— نعم ، نعم ... تذكرت ذلك ! ... انه هو نفسه قد رأى نهايته العاجلة مرة المذاق ، وسأل اياه ان يصرف عنه كأسها ، فما

اصنع انا بعد ذلك ولست الا ابن فلاح ؟
وزفر زفرة أليمة وغاص في مقعده ومد ساقيه وجعل يشن
ويتوجع :

— ما العمل يا كيكين ؟ قل لي : اي يد ستستولي على ثروتي ؟
أليس مما يدفعك الى الجنون دفعاً ان توفر وتقتصد وترتكب الاثم
وتجمع الثروة ثم ها انت ذا تفقد كل شيء وتلقيه في هاوية ليس لها
قرار ؟ قل لي حدثني !

وظل يتكلم وهو شاك غاضب ، وجعل يلمس اواعي الازهار
في النافذة ، وكيكين مطرق الرأس يقرع ركبته !
وتنهّد بيكوف ثم قال :

— اذا حرمت يعقوب فلم يرثني ، ولم اهب ثروتي لمشروعات
البر ... كانت نهياً لخزينة الحكومة ...
وقضم أسنانه وتابع :

— وعندئذ اكون كأني مجرم جرد من حقوقه وحكم عليه
بالسجن المؤبد ! — هذا صحيح .

— يا لها من لعبة محكمة ! — لا مناص منها
وظلا امدأ طويلا صامتين يبحثان عن حل ، واخيراً رأى الاحدب
ان يدعو بيكوف ابن اخيه الى الاقامة معه في بيته ، وعند ذلك
يدرسه عن كشب ، ويستطيع ان يؤثرفيه ، لعل الصبي ان يصبح
اكثر جداً وأصلب عوداً ، اذا أحس بما تفرضه الثروة على صاحبها
من وجائب ...

ووفقاً عند هذا القرار .

المطر يلهب زجاج النوافذ بسياطه ، والريح تزجر ، والبروق تلمع فتشير الظلال في الشارع ، وتغمر الغرفة المعتمة بنور أزرق باهت . والنباتات على اطراف النوافذ كأنها غليظة ، والاثاث يهتز وينساب الى البقعة البيضاء عند الباب . والخطب في المدفأة الخزفية يقطقط ويشعل ، وبيكوف جالس امام المدفأة يدفئ رجله الباردتين ، وقد قفزت على ثيابه وركبتيه وصدره بقع حمر نارية تنير شطراً من لحيته ، ثم لا تتجاوز ذلك الى وجهه لانه كان يلقيه في ما وراء المدفأة وعيناه مغمضتان كأنه اعمى .

وجلس كيكين المكعب المكور فوق مقعد ابيض ، يحفي يديه في صدره ، تحت صندوقه ، والنار تنعكس على عينيه انعكاساً غريباً وهو يحدق في وجه يعقوب الذي اعتمد كتفه على آجر المدفأة ، وجلس يتحدث في صوت خافت كأنه يقص اسطورة :

— كلما تراكت الاموال في صناديق بعض الناس زاد طمع سائرهم فيها ، وهكذا يرى الفقراء تلك الثروات الضخمة ...

وتتم بيكوف وهو يفتح عينيه :

— إيه !

وتنهذ كيكين ، وغمس الملقط في المدفأة وجعل يقلب الخطب ،

وفرقعت جذا النار في حنق ، وبصقت الشرر على لوح النحاس
امام المدفأة .

وسحقها بيكوف بقدمه ، والتى نظرات حزينة :

— كل شيء خبيث ، كل شيء مؤلم .

وبدت سحنة كيكين كرة من نحاس صدى عبث بها الناس
زمناً ثم تركوها ، وانتصبت على جمجمته شعرات كأنها القطيفة ،
وفغرت الدهشة فمه الضفدعي ، واتدت أذناه كأنهما قرنا شيطان ،
وبدا وجه يعقوب كأنه صورة رسمت في قعر آجرة بيضاء ، ولم ترده
التياب الجديدة التي يلبسها رقة ووداعة .

وسأله بيكوف ساخراً :

— أظن ان الفقراء اوشكوا ان يشبوا بالاغنياء وينهبوهم ؟

— لا بد ان توزع الثروة في عدل .

— أهكذا تقول ؟ ان تفكيرك خبيث يا صديقي !

— لست وحيداً في هذا التفكير فملايين الناس يفكرون كما افكر

— وهل أحصيت عددهم ؟

وتدخل كيكين في مهارة فقال وهو يحدق في المدفأة :

— الحق ان الشعب ناقم .

وهز بيكوف حاجبيه وقال له نافخاً :

— اسكت ! ألا ترى اني ساكت

منذ شهرين يقيم ابن اخيه عنده ، وبيكوف يلاحظ ان موافقة
الاحدب على آراء يعقوب تزداد وتطرّد ، وانه اصبح اكثر فطنة
واوفر رزانة ، وانه اصبح يرعى الفتى رعاية المعجب المطيع . لقد شم

الكلب رائحة سيده الجديد .

— هؤلاء هم الناس .

اما ابن اخيه فأولى له ثم اولى ان يكون احق غير محنك ، من ان يكون كثير الخبث ، شديد المكر والدهاء ، محال عليك ان تفهم ما يريد ، انه يتحدث اليك لطيف المدخل رفيق المخرج ، كأنه يريد ان يأخذ بيدك ، دون ان تشعر ، ويقودك الى ان تفكر كما يفكر ، والى ان تعتقد كما يعتقد من ان كل ما في الحياة من شر وتعتيد راجع الى الثروة والثروة وحدها . وانها لفكرة يمكن ان يعتنقها ذو عاهة او احدب ، ولكنها لا تناسب بعقوب ولا تلائم . وببكوف يرى انه في الدعوة اليها غير مخلص ، فهو يعرف ان ثروة عمه كلها مستنصب في خزائنه بعد موته ، وهو ايضاً لا يشبه في شيء ذلك الذي يحب الناس والذي هو أهل ان يوزع على الفقراء منهم كل ما يملك ، بل ان فيه كثيراً من عادات السادة وطبائعهم ، فهو يحترم الاشياء ويعنى بها ، ويجب النظام والنظافة . لقد كان البواب نائماً فأقعده وجعله يمشي على قدميه وأعانه على تنظيف باحة البيت ، وهي التي لم تلق منذ امد طويل حظها من العناية ، ونقب عن كل شيء ، والتقى القبض على الوكيل متلبساً بجريمة السرقة ، وهو فوق ذلك كله لا يحب الشحاذين ... انه كالماء الكدر لا يصفو لك دائماً حتى تبين ما وراءه . وهذه الخصلة من الشعر المتمردة المتدلية على صدغه ، لعل في دماغه خصلة اخرى من الشعر متمردة عنيدة ... ولكن ... لعله انما ينشر هذه المرطقة المزعجة الشاذة لسبب واحد : انه يريد ان يخيف المريض ويشيره ويسرع به الى القبر .

ولقد اقلقت هذه الفرضية بيكوف ، فسأل يعقوب ذات يوم
في صراحة :

— ولماذا تنفق علينا كل هذه الارجيف ؟ !

وقلب ابن اخيه عيني خروف واجابه :

— يجب ان ننظر الى حياتنا نظرة اكثر عمقا ووضوحا ، لقد

كان لعيني هذا الفتى تعبيران : اما احدهما فتعبير عن صبي صالح
قريب الى النفس ، واما الاخر ، وهو الغالب ، فتعبير جامد احق
اعمى يستولي على عينيه في اللحظات التي يندفع فيها الى نشر بدعه .
— يجب ان ندين امورنا في وضوح ، يجب ان يتفاهم الناس

ليتعاونوا ...

ونفخ بيكوف ثائرا :

— ليتعاونوا على من ؟ ومن الذي اعتدى عليهم ؟ انهم هم

المعتدون . افهمت ؟

وعاد الشاب يقول في عناد :

— لن يستطيع الناس الحياة ما دام بينهم اختلاف . لقد قال

المثل القديم : من يزرع الرياح يحصد الزوبعة . يجب ان يندم وجدان
العالم على ما قدم ، والا فالثورة ناشبة لا محالة ...

وصرخ بيكوف في ملل :

— انت كذاب .

والايام تمضي ، وبيكوف يسأل في كل يوم نفسه : اهذا الفتى اهل

لان يكون لي وارثا ام غير اهل ؟ وحالت تأملاته هذه دون
تفكيره في الموت ، بل ربما خيل اليه انها تهدد من ألمه .

— يا له من فتى غامض غامض .. الشحاذ يفهم ان المال دعامة الحياة الصحيحة المتينة ، وانه حصن الانسان المنيع .. بل ان القنفاذ تفهم هذا الامر البدهي .

وفي الليل ، اذا هذأت الاشياء ، وصمت كل ما على الارض ، كأن الليل نفسه يريد ان يتأمل في النهار الذي انقضى ، ويستعرض ما كان فيه من حوادث ، في الليل اذا ازدادت الافكار وزناً وكثافة وكادت تصبح اشياء محسوسة ملموسة ، في الليل حين تنفلت كبكبة العقل المتشابكة وتمدخيوطها القائمة في كل مكان تحاول ان تصطاد كل شاردة ، في هذا الليل كان بيكوف يصغي بأذنيه الى جاره الذي يسكن الغرفة فوقه ، فيتبين انه ما يزال سهران لم ينام ، ويخيل اليه انه يسمع حديث يعقوب الغنيد ، ويرى وجه الاحدب المتعجب .

وهذا الفتى يبحث في تعديل القوانين ، وتحديد سلطة القيصر ، نعم انه يتنطع ويدس انفه حتى في هذا الموضوع الخطير . انه يعلم ان الناس تهامسوا حول هذا الموضوع خلال الحرب الروسية — التركية ، وانهم الان يتحدثون عنه مرة اخرى لان حرباً جديدة قد شبت نيوانها ، وان المدنيين وحدهم هم الذين يثيرون هذه الضجة ، فهم لا يريدون ان يحاربوا ، وهم يخافون ان يجندوا ويساقوا الى ميدان القتال ، ولقد حاولوا في بدء الحرب التركية قتل القيصر ، فلم يوفقوا الى قتله الا بعدها :

— ما احمق هؤلاء الناس : الحرب قديمة قدم الانسان ، فعلام يحاربون الحرب ؟ لقد حارب اليسع ، وكان داود نبياً طيباً رحباً

له مزاميره ، ولكنه اضطر الى خوض المعارك ، وآباء الكنيسة
حاربوا ، وامراء الروس التقاة قاوموا اعداءهم التتر ، والقديس
الكسندر نيفسكي اباد اهل السويد اباداً ما فيها رحمة ولا شفقة ، مع
ان اتباعه لم يقتلوا واحداً منهم ، ولكن الله قتلهم ، يا للجهالة الجاهلاء .
واتعب بيكوف استلقاؤه على سريريه ، فمضى يجلس قرب النافذة ،
ويتطلع الى النجوم والى القمر ذي الوجنتين المنتفختين ، وشعر بالضجر
ينصب من السماء المزدهية بالنجوم انصباباً . وتذكر كاهن الكنيسة ،
الاب تيودور ، وقوله المكرور :

«ما اشد روعة الانسان حين يرى جلال السماء العجيب» وتذكر
ان هذا القول لم يكن يحول بين الاب ولعب الميسر . وتذكر انه
خاصم هذا الكاهن حين عارضه فقال له :

— ليس في السماء شيء من الجلال ، بل انها لا توحى الى الانسان
الا شيئاً واحداً : هو انه حقير ضئيل . وعندي ان السماء في النهار
حين تكون فارغة تلمع فيها الشمس وحدها ، خير من السماء في الليل .
وان السماء في الليل حين تكون محتجبة بالغيوم فلا نراها ، فكأنها
غير موجودة ، خير منها حين تكون صافية . لقد خلق الناس للارض
وعلى الارض ، وحين يحاول رجال الدين انتزاعهم منها يخادعون
انفسهم فكأنهم يدعون العروس ليلة عرسه الى ان يتروك حفلة زفافه .
ويمضي الى الشكنة العسكرية .

وتذكر ان الكاهن غضب حتى احمر وجهه غضباً .

ورأى الاشجار في الحدائق تتعائق وتلتصق في الظلام كأنها غمست
في شحم اسود ، والمدينة كلها يسودها صمت قاتل ، صمت لا يطاق ،

يكاد يدفعك دفعاً الى ان تصرخ بملء فيك :

— النار ! .. النار ! .. الحريق ! .. الحريق ! ...

وبيكوف يستغرق في شكواه ونجواه :

— يا رب لم عذبتني ؟ ولم اذنب اكثر من سواي .

وعندئذ تذكر اولئك الذين عرفهم وعاملهم واستعرضهم واحداً بعد واحد . لقد كانوا جميعاً اكثر منه شراً ، وأشد حرصاً وتكالباً ، وأعنف حسداً ، وكان موسوساً شديداً التنقيب والتدقيق في معايبهم ، ولذلك لم يستخلص له اصدقاء أوفياء ، وعاش فريداً وحيداً ، عاش لينبي له في تودة وصبر عشاءً مكيناً يحيا فيه حياة هادئة والى جانبه امرأة صالحة وجيدة : ما أحسن ان يرى الانسان في بيته زوجة غضة بضرة ذات جمال يكسوها كما يكسو الطقل لعبته ، ثم يرافقها الى النزهة في ايام العيد ، ثم يركب معها في عجلة يجرها حصانان ، ويعرض على الناس زينتها وأزياءها فوق جسمها الرخص وقوامها الناعم فتنتطلق غيرة النساء من عقالها ، وحسدهن من سجنه ... ما أجمل هذا وما أحلاه ... وتطلع بعينيه المتغضنتين الى الاثاث الثقيل ، وذكر الآمال التي علقها عليه حين اشتراه : للاشياء مغزاها ، والانسان يعيش بينها كما يعيش في حصن منيع ، جرد الغرفة مما فيها من اثاث تصبح كأنها تابوت كبير :

— آه ! يا رب ! ماذا جئيت ؟

وعاد فخل الى انه يسمع خطوات يعقوب رائحة غادية في مستودع الاحدب ، وهو ينسج بكلماته فسيفساء بدعه وهرطقته كما تنسج آلة التطريز نقوشها وزخارفها .

— ما اصلب عوده وما اشد تمسكه بآرائه ، وليس في هذه الصلابة ما يزعج ، وان كانت افكاره صبيانية ، فأنا نفسي عندما كنت شاباً كنت لا اعرف ما اريد .

ومضت تأملات بيكوف في دروب وشجون : مها يكن فليس لي الا وارث واحد هو يعقوب ، هذا نصيبه . وجعل بعد ان اتخذ هذا القرار ، وهو شاعر ان عقله يأباه ، يجهد نفسه في التماس المعاذير فلا يجد غير واحد : ولد متواضع عفيف ، وهو اذا أصبح غنيا كان اكثر عقلاً وواضح وعياً .

ولكنه كان ، اذا نسي لحظة واحدة ان يعقوب سيصبح له وارثاً ، يرضى عنه ويجد فيه كل ما يبتغيه ، ويرى ذكاه مغيراً لذكائه : انه ذكاء غريب ينساب من قلب لم تدنسه الحياة بأقذارها ، وايمان راسخ لم ترعزعه نكبات الايام . وربما شعر بيكوف ، وهو يصغي الى حديث ابن اخيه المعقد احيانا ، والغامض احيانا ، بشيء هو الحسد او يقاربه ، فتراه يتخذ عامداً وجه الرجل الصارم العبوس كيما يوارى ابتسامة غير ارادية تكاد تنفرج عنها اساريره .

— حسناً.. حسناً.. العصفور يزقزق ، انه ما يزال صغيراً اذا زغب اما انا فتد صلب ريشي ولست أستطيع ان اشاركه في زقزقته ، ما اهون الامور على هذا العفريت الصغير !

وكان أثر الاحاديث عند بيكوف ، حديث يعقوب عن معلمه القديم تيتوف ، وعن سكراته العرايب ، كان يضحك ويفتح شذقيه وهو يسمع قصصه فتبدو اسنانه الذهبية كلها ، ويغمض عينيه مسروراً ويغمغم : لقد سره ان يجد عدوه مضحكا الى حد يستدعي الاشفاق

عليه ، وان يجد عين وارثه يعقوب حادة يقظة قادرة على اكتشاف مواطن الضعف والقبح في الناس .

— انت ملاحظ ماهر ، وهذه الملاحظة نافعة ، فمن الخير لك ان تعرف اية رجل يعرج عليها المرء ، ان كانت اليسرى فاضربه على يمينه ، وان كانت اليمنى فاضربه على يسراه .

ورسم يعقوب ذات يوم هذه الصورة الزيتية بصوته الصافي :

— اذا حل فصل من فصول السكر عند تيتوف دعا اليه المهندس بالتايسكي ، وجعلا يشربان عشرة ايام دون انقطاع ، في كل يوم عند المساء يرسلان الخادم الى الحديقة ليدفن فيها عشرين زجاجة من الخمر في عشرين موضعاً ، على شرط ان تكون مطمورة لا يبدو منها شيء ، فاذا طلع الصباح مضيا الى الحديقة ، وفي يد كل منهما عصا ، يبحثان عن الفطر — كما يسميانه — فيقلبان الارض بحثاً وتنقياً فاذا عثر احدهما على زجاجة صاح في سرور : وجدتها ... وجدتها ...

ثم يمضيان بها الى عريشة الكرمة فيشربانها ثم يعودان الى البحث عن زجاجة اخرى من جديد .

ولكل نوع من انواع الخمر عندهما اسم من اسماء الفطور ، « فالنبيد » هو « الفطر الاحمر » ، و « الشمبانيا » هي « الغاريفون » و « الكونياك » هو « القطر البرتقالي » و « العرق » هو « الفطر الاشني » ولا يزالان يبحثان عن الزجاجات سحابة نهارهما ويشربان ما يجدهانه على الترتيب فيبتدئان مرة بالعرق ... ومرة بالنبيذ ... فاذا سكر تيتوف مضى

يمشي على قوائمه الاربع ، كأنه الملك مختصر ، وهو يعني لحنا من الحان « الشيطان » :

انا لم التق محبا ذا حنان
انا ملعون على كل لسان

وبالتايستي مكب على الارض يبكي ويتعجب : لأنه لم يستطع
اخراج زجاجة من الارض بلسانه وحدها ، فلا يزال يئن ويصيح :
— وأسفا على شبائي ... واضياع قوتي ...

ويضحك بيكوف رغم ما يثير الضحك من ألمه ، ويقول سوموف
في اسف ظاهر :

— الحق ان ذلك يضحك ، ولكنني اشفق مع ذلك على هؤلاء
الناس ، انهم ذوو قوة خارقة ، وموهبة ممتازة ، انهم قادرون على
تحريك الجبال الرواسي ، ومع ذلك فهم لا يحركون غير اصبعين من
اصابعهم . يخطئ من يظن ان الناس حريصون ، فانا ارى انهم لا
يحرصون على العمل .

وقال بيكوف يعارض ابن اخيه رغبة في المعارضة وحدها :
— انت شاب ، لا ترى كبير امر .
وفكر في نفسه :

— ان هذا الصبي لغز مبهم ، يفكر فيما يتعلق بالاعمال تفكير المعلم
الماهر . نعم : الحق ان الناس لا يرغبون في العمل ، انهم كسالى .
ولكن ما اغرب هذا الامر . مستخدم ، عامل مثلا ، يجار بالشكوى
لان معلمه لا يعمل كما ينبغي ، وهو يقول علينا ان نعمل في

وجدان ، ولكن يجب ان نترك الافكار الصبائية جانبا اذا اردنا
ان يعمل الناس جميعا في وجدان وبكل ما يملكون من قوة .
وقال لابن اخيه في غضب .

— انت ولد معقدا يا يعقوب ، وهناك مسائل لم تفكر فيها
تفكيراً جدياً .

وسكت سوموف وغض من نظره ، وحاول ان يبسط خصلة
شعره المتمردة فازدادت حرانا وتمرداً .

وفجأة شرع التجار يضطربون ويتحرقون ، وارهقوا خيولهم
رائحين غادين اياماً طويلة ، وجعلوا يطوفون الشوارع ، وهم في
عجلاتهم تبدو عليهم الجلالة والمهابة ، وسأل بيكوف صاحبه كيكن
حين رأى ما رأى من حركة هؤلاء الذين لم يتعودوا مثل هذه الحركة
وهذه السرعة ، وهو يطل عليهم من النافذة :

— ما بال الناس يتخبطون ؟ !

لقد تغير وجه الاحدب الكالح وبدا اكثر تبليجاً وانبساطاً ،
وفقدت عيناه الدجاجيتان ما كان فيهما من ثقل مرضي ، بل ان
مشيته قد زادت رسوخاً ، وتلفته اصبح اقل تكلفاً واكثر ألفة ،
وكانه حين يتحرك يحمل بين صندوقيه شيئاً يتقزز قفزاً ، وقص
الاحدب على بيكوف ، وهو يغمز بعينه في حماسة ، ويرتل كلماته
ترتيلاً ، ويشد حمالة سراويله مرة بعد مرة ، قصة غير معقولة ، حادثاً
غريباً اشتركت فيه دار البلدية ، ومكتب اصحاب الحرف ، والتجار
والاشراف وحتى رجال الدين .

— انها لحكاية عظيمة يا المجور ايفانوفتش .

— اسمع . هل الحاكم في المدينة ؟ — نعم .

— اذن ما الخبر ؟

وابتسم كيكيين ابتسامة جديدة ماكرة :

— وماذا تريد ان تعرف ؟

— يا لك من احمق .

لو كان في المدينة يعقوب لقص حوادثها في وضوح ، ولكنه يقضي اياماً في موسكو ، وهو غائب منذ خمسة عشر يوماً ، والمدينة تردد حركاتها وتتفاهم امورها ، وتنمو خوضاؤها فكانها في اعياد الاسبوع المقدس ، وكأنها تدوي فيها وشوشة حريق كبير .
وسأل بيكوف مرة اخرى صاحبه غاضباً :

— ما الخبر ؟

— اسمع يا ابجور ايفانوفتش ، ان الشعب يريد ...

— من الشعب ؟ .. الفلاحون .. تكلم ولكن لاتكن مهذاراً ..

— ويريد الفلاحون كذلك ..

— ما يريدون ؟ — يريدون الارض ...

— لمن ؟ — اسمع ...

وتأمل الاحدب وجعل يتلوى على كرسيه ، كأنها سرطان ألقى في ماء يغلي ويفور ، وابتسم مكرهاً ويتمتم :

— الناس جميعاً يطلبون تصفية الحساب ...

وفرك يديه ولمع في عينيه فرح سكران ، يناقض قصته الباكية ، واختلجت رجلاه العبلتان وتقرتا الارض تحت المنضدة واستمر يقول :
— لئد صاح الحقد الدفين على الحياة القذرة باعلى صوته ، وشرع العتل ينفض عنه غبار النوم ويصحو من خماره ، واتفق الناس جميعاً على امر واحد ، هو انهم لن يسمحوا مرة أخرى ببقاء هذه الحياة ...

— اية حياة؟؟ ايها الشيطان ذو الصندوقين !

— ولكنها حياتنا هذه التي نحياها ... لقد شرع الناس يبحثون في كل امر شجعانا بخير خائفين ، واقسم لك انك لو رأيت بعضهم نخيل اليك انهم كانوا نائمين منذ قرون ، وان تلك الحياة التي عاشوها ليست حياتهم ابدأ ، وان الماضي الذي مر بهم لم يكن الا حلما عابراً ، وانهم الان قد قرروا وصمموا ...

والاحد جالس وقد زوى صدره قليلا ، وأدار وجهه الى بيكوف ، وسترته البنية القصيرة تقفز فوق صندوقه ، وتكشف عن كرة بيضاء في قيصره ، وعن حمالة سراويله ، وسراويله تتناثر عليه يقع من الطين تبلغ ركبتيه .
وفكر بيكوف :

— كيف قضيت حياتي مع مثل هذا الابله التافه ؟...

— نعم ! انها حكاية يا ابجور ايفانوفتش . لقد احتل الناس الشوارع واقاموا المتاريس والاستحكامات امام دار البلدية !
— اغرب عن وجهي .

وبقي بيكوف وحده قتال في نفسه :

— دويذة حقيرة تزعجني ... يجب ان يسكن بيتا وحده ، ولست في حاجة اليه ما دام يعقوب في منزلي ...

وعاد يعقوب من موسكو في يوم ماطر عند المساء ، ونزل الى غرفة عمه يشرب الشاي في سماء رائعة ، كأنه عائد من الكنيسة بعد القداس ، وكان في نفسه شيئاً قد امتلأ حتى كاد ينفجر ... وكان خصلة شعره المتمردة قد ازدادت وقاحة وانتصاباً ، وكان حاجبيه

قد برزا في قلق ، وكان صوته اصبح اشد قيمة وتهديجا ، بل لقد
جلس على كرسية جلسة أقل تواضعا ، بل لقد دفع هذا الكرسي الى
المنضدة بقدمه ، واقلق هذا الموقف بيكوف وانذرته سلفا بنكبة
ستحل به عما قريب ، وسأله : كيف الاحوال في موسكو ؟ ..
وبدا ابن اخيه يتحدث ، وهو ينتزع الالفاظ ويفكر ، وكان
صوته مرتفعا ارتفاعا غير مألوف ، فكأنما هو شاهد يؤدي شهادته في
محكمة ، وقد اقسم امام القاضي : انه لن يقول غير الحق ...

مضى في حديث طويل ، ولم يجب على اسئلة عمه الغاضب ، وربما
وقف عند بعض المقاطع من حديثه ، كأنه يحاول ان يتذكر امراً
او وكأنه يبحث عن كلمة شاردة ...

وقال بيكوف في نفسه : انه يكذب وهو يريد ان يخيفني . وآله
ان لا يكثرث يعقوب باسئلته ، واضحكه ان يرى الاحدب يهتز
على كرسية في صبر نافذ ، ويفغر فاه الضفدعي ، يتحين الفرصة لالقاء
دلوه في الدلاء :

— كلبان شم كلاهما رائحة صاحبه

وقص عليها يعقوب قصصا لا تصدق ، لقد ثارت طبقات الشعب
كلها فجأة لأمر غير معروف ، تطالب بتخفيف آلام الحياة ، وكل
طبقة منها تمشي وراء هدف عينته لها مصالحها ، والناس جميعا كأنهم
سكارى يسرع بعضهم الى حرب بعض .

وسأله بيكوف غاضبا حذراً :

— وما عسى ان يحدث ؟

— ستحل بنا الكارثة اذا لم يثر ضميرنا جميعا ، فنندم على ما كان

في الماضي ، وتعاون على المستقبل . يؤسفني ان اقلق بالك ، ولكني
لا استطيع ان اكنم عنك انا قادمون على ثورة مسلحة ...

واجابه بيكوف في لهجة الواصل الحازم :

— أنت تكذب ، واين السلاح ؟ أنت تكذب ، بل انك تستثمر
مرضي وعجزني عن الخروج الى الشارع ، وانت تحاول ان تقتلني
خوفا وذعراً ..

وصرخ بصوت خفيف ، وهو يضرب المنضدة بيده فتتهتز الاقداح
فوقها وتندندن ، وعيناه جاحظتان :

— لست عجوزاً شيطاء ، وما اظن الساعة قائمة ، بل انا لا اخاف
هذه القيامة .. بل انا لا اخاف شيئاً ابداً ، وانا المالك المطلق لثروتي
ما دمت اعيش ..

وسكت بيكوف حين رأى ابن اخيه قد احمر وجهه حتى احترق ،
وجعل يقدم كرسيه الى المنضدة ، ويسعل سعالاً جافاً ، ويقول له
كأنه يدق المسامير :

— اذن فاسمح لي ان افسر لك موقفك منك تفسيراً صادقاً لا ريب
فيه ، انت تظن اني أعبأ بميراثك ، وقد اشار كيكيين الى ذلك ذات
مرة ، ولكنك مخطيء في هذا الظن ، بل انت مخدوع ، وفي ظنك
هذا اهانة لي واحتقار ... لست في حاجة الى ثروتك .. بل انا ارفضها
رفضاً باتاً . وانا مستعد ان اكتب لك صكاً رسمياً بالتخلي عن هذه
الثروة .. وسأكتبه اليوم واسلمك اياه ...

لم اسكن بينك الا لامر واحد هو انك مريض وحيد ، وانك
تشعر بالسآمة وتحس بالكآبة .. وانا اعلم انك خير من كثير من

امثالك من المرابين ، لان فيك بعض ما احب من استقامة ، فلكـ
كنت قادراً على ان تقضي على الدكتور بيكر قضاء تاما قانونيا ،
وعلى ان تقذف به في هاوية الشقاء والبؤس ، ولكنك لم تقض عليه ،
ولقد كنت قادراً على القضاء على الاوانس كازيميرسكي ولكنك لم
تقض عليهن ، ومن هنا كان مصدر احترامي لك واعجابي بك ، ومن
اجل هذا وحده سكنت بيتك .. اما الآن فقد حان لي ان انصرف
فالوداع ..

كان يعقوب يسعل ويفج كالأفعى في بدء حديثه وانتهى الى تممة
خافتة لا تسمع ، وخنقته السعلة فنهض ومضى الى الباب وهو يقول :
— انا اشكر لك ما كان من معروف ... ولكن يؤسفني ...
وصرخ به بيكوف ، وهو يشد زناره حول خصره ، ويدفع طرفي
الزنار دفعا غير ذي سبب :

— مهلا ... مهلا ... لا تحزم امتعتك ...
ولكن يعقوب سورموف كان قد غاب وراء الباب ، وعندئذ
صرخ بيكوف بالاحدب :
— عليك به ... امسكه ...

وقفز الاحدب وتكور واختفى
ودمدم بيكوف : ما هذا ؟ !
وتطلع الى الباب في دهشة ، وارهف سمعه الى الاصوات التي
تحتق رويداً رويداً على السلم .

لم يدهشه ان يرفض سورموف ثروته ، قدر ما ادهشته معرفة
هذا الصبي لقصة الدكتور بيكر والاوانس كازيميرسكي ...

اما الدكتور فكان رجلا ابله وقع في براثن مراب ذكي ، واما
الانسات كازيميرسكي فقد كدن يهدمن استهتار ابين الخليع ...
وقال في نفسه :

— انه يحترمني ... ولقد ظلمته واثرتة ، وهو الطفل البريء ...
وصرخ وهو يستقبل سورموف نادما خجلا :

— حادث عارض . ولم تتركني ؟ اجلس ، ثروتي لك وحدك ..
تلك هي ارادتي ... بل ذلك هو القانون .

وقال يعقوب وهو ما يزال واقفا معتمداً على الكرسي في صوت
خافت ولكنه حازم :

— ارفض الحديث عن الميراث .

— أهكذا ؟ أنت لا تريده فعلا ؟

— كلا لست اريده ... ثم ان من الممكن ان تلغى الوراثة
عن قريب ...

وسأله بيكوف وهو يؤرجح عقدي زناره :

— وكيف ذلك ؟ ... اجلس .

واحس باحساس غريب ، انه مثل احساس ذلك الشحاذ الجائع
الذي تصدق عليه الناس بعد حرمان طويل بقطعة طيبة وكبيرة من
الخبز الابيض ...

— لا تؤاخذني ، فأنا مريض ... ما من احد يستطيع ان يحول
بينك وبين ارثك ... ذلك هو القانون ...

وجلس يعقوب وهو يقول :

— هذا القانون يجب ان يلغى ، وسوف يلغى ، فهو مصدر

وقال بيكوف يمازحه، وقد رآه يتألم، وتطاول وجهه، واضطربت نظراته :

— هذا صحيح ... ولسوف يلغى ...

ثم سأله : أنت محوم ؟

— كلا ، ولكنك مخطيء حين تمزح ... لقد ثار الشعب على الاغنياء ناقماً ... ويقول بعض الناس : ان عليه ان يستولي على أموالهم جميعاً ...

وقال بيكوف يطمئنه :

— لا تخف .. لا تخف .. لن يأخذوا منها شروى تغير ...

— ولكنني غير خائف .. بل انا نفسي أرى هذا الرأي وادعو اليه . وشق بيكوف ، وغرغر صدره ، ثم زفر فقذف بهواء رثييه ، وبألمه دفعة واحدة ، وتحدث في صوت قوي مرتل كأنه الخوري تيودور حين يتلو صلواته :

— الانسان بلا مال ، كالعظم بلا لحم ، المال هو جسده ... هو لحمه ... أفهمت ؟ هو لحمه ..

وضرب ببطن كفه ذراع المقعد الجلدي وعاد يقول :

— نعم هو لحمه ... والانسان لا يعيش الا لكي يكسوه اللحم ، ويشبع رغباته .. والعالم كله قائم على اشباع هذه الرغبات ، والعمل الانساني كله انما يهدف لهذه الغاية ... ومن يطلب القليل لا يساو الكثير ...

وقال يعقوب في بسمه ساخرة :

— حسناً اذن فكل انسان يريد ان ينال كل شيء ...

— وكيف ذلك؟.. ماذا يريد الناس ؟ لا تؤمن باقوالهم بل انظر الى اعمالهم ... ليس يكفيننا ان نرغب ونريد ، ولكن علينا ان نتبع ونكسب ، واذا كان كل شيء كثيراً كفى الناس جميعاً ورضي الناس جميعاً ...

وقال بيكوف في رفق وعطف :

— لست أبله ، وانا أفهم ما تريد ، انك تريد ان تكون الامور سائرة في بساطة وصفاء كما قال المسيح . نعم ان المسيح اراد ان يقسم كل شيء قسمة عادلة متساوية ، ولكنه كان يعيش في عالم فقير أما نحن فنعيش في عالم غني ، ثم ان الناس كانوا أقلاء في عهد المسيح ، وكانوا فوق ذلك يريدون قليلاً من الاشياء ، ولا يقدرّون عليها ، اما الآن فتد اصبحت اكثر حرصاً وطمعاً ، واصبحت اكثرين وزادت حاجتنا الى كل شيء ، اذن فواجبنا الآن ان نعمل ونجمع ونندخر .

ودعش بيكوف من آرائه هذه نفسها ، كانت تتوارد الى خاطره فجأة ، وكأنها مستقلة عن إرادته ، او كأنها شخص اجنبي ولكنه مغر لذيذ .

وحيرته هذه الافكار واقلقت باله ، وبدت واحدة له منها ذكية صحيحة مقبولة قادرة على حل ما في الحياة من تعقيد حلاً قريباً سهلاً ، فعاد يردد ويصغي الى نفسه في انتباه :

— علينا ان نبدأ بالعمل ، وبجمع كل شيء ، وعلينا بعد ذلك ان نقوم بتوزيعه على الناس توزيعاً بالسوية والعدل ، حتى على الناس

ذوي العاهات الذين ليس من ورائهم نفع ، نعم حتى على هؤلاء ،
وهكذا لا يبقى على ظهر هذه الارض بؤس ولا قدر ، ولا ظل
للآثام ، وهكذا يشبع الناس جميعاً ويعيش كل فرد منهم كما يشاء
ويختار ، وهكذا لا يزعجك واحد منهم بحقده ولا بجسده ، وهكذا
يصبح كل انسان قديساً ، نعم يصبح كل انسان قديساً .

وما زال بيكوف يتحدث وهو يزدد دهشة من حديثه ، شاعراً
ان تفكيره قادر على ان يتطور في هذا الاتجاه الجديد تطوراً ليس
له نهاية ، وانه يلهمه الالفاظ الضرورية للتعبير الهاماً سهلاً ، وخيل
اليه ان كبة الخيطان المتلاحمة لهذه الفكرة ، مهجورة في ذهنه منذ
امد بعيد ، منذ الازل ، وانها الان قد دبّت فيها الحياة وبدأت تدور
وتدور ، وهي تمد وراها في طريقها سلكاً قوياً لا نهاية له ، سلكاً يقطع
امتداده انفاس بيكوف ، فكأنه محمول في سرعة على طريق ملساء مصقولة ،
والكلمات الجديدة تجري على لسانه في سهولة فوق العادة كأنه
فكر بها دائماً ، والقاها دائماً ، وسره ان يحس انه ذكي من غط جديد ،
وان يرى الاحدب يبتسم وهو يصغي اليه اصغاء فيه بهتة وفيه ذهول ،
وان يرى يعقوب ينحني على كرسيه وينظر اليه في حنان بعيني
صبية جميلة ، كل هذا مؤثر ، كل هذا كان يدفع بيكوف الى
الخشوع ، وهو يحس بالقوة الخارقة التي تربط بين الناس وتوحد بين
قلوبهم ، وتجعلهم اخواناً على سرر متقابلين ، واغرورقت عيناه بدموع
الحنان ، وفجأة خارت قواه فأكب على المقعد وزمزم وهو يغمض
عينيه مرهقاً تعباً :

— ومن ذا الذي يسره ان يكون جزاءاً يذبح الناس؟! ولكن

الحاجة الى العمل كبيرة جد كبيرة ، وعلينا ان نسرع ، فالموت
يفسد كل شيء ، ويهدم كل مشروع .

ونهض كيكن فقال في اهتمام :

— يجب ان تنام يا ابجور ايفانوفتش ، فانت تعبان ، تعال
ساعدني يا يعقوب .

وتأبطا ذراعي بيكوف ، وسارابه الى سريره ، واضجعا في
عناية ، ثم انصرفا في غير ضجة ، والاحدب يلف ساقيه امام يعقوب ،
ويعقوب يمشي وراء الاحدب مطرق الرأس يمد خصلة شعره .

وعاش بيكوف أياماً لذيذة ، شعر انه في عيد او في حفلة تكريم
تغمره غيمة ندية من العناية والرعاية ، يحيطه بها كيكين ويعقوب .
ولقد انهارت قواه فجاء له بمرضة عصبية المزاج ، طويلة نحيفة كأنها
قضييب ، نقش الجدرى وجهها ، وترك عينيها دون لوت ، ورأى
بيكوف ، وهو يلحظ انهيار قواه صابراً مستسلماً ، من خلال ضباب
احساساته ، ان وجه كيكين يزداد اصفراراً وطولاً ، وعينيها تزدادان
قلقلًا وتقلباً ، وان يعقوب قد اصبح سوداوياً اصفر حزيناً ، وانه
يغيب عن البيت مرات في اليوم الواحد ، وانه حين يعود يتحدث
في قليل من الحماسة ، وفي كثير من الحذر .

وقال بيكوف في نفسه :

— انها يرعيان امري بقیاً علي ، ولا يريدان اطلاق بالي .. ان
نهايتي قريبة ... ما في ذلك شك .

واصبحت فكرة الموت اقل رهبة ، ومرارة ، وتضاءل مغزاهما
الشديد ، ولكنه مع ذلك كان يردد حيناً بعد حين مرغماً او كالمزغم :
— الان طابت لي الحياة مع يعقوب ، لقد فهماني وادركا سري ،
ولقد بسطت امامهما روحي كما تبسط الورقة فقراً فيها من أنا .

ويتسم ويفكر في وارثه .

— أوضحت له معنى الثروة وقيمة المال فأصبح الطفل قلقاً .
وهو الذي كان يقول بتوزيع الثروات على الفقراء ...
يا للرجال ...

وسأل الممرضة ذات يوم يريد ان يفهم قصص كيكين الغامضة ،
واحاديث ابن اخيه المنطوية :

— ما اخبار البلد ؟

وقالت المرأة :

— الثورة مستمرة .

قالت المرأة ذلك في غير اكتراث ، كأن الثورة عمل عادي من
اعمال الناس ، او نوع من العريضة والسكر والتجارة ، ثم تثاءبت ،
وهي التي تثاءب دائماً ، فتضع يدها على فمها ، وترسم الصليب ،
كأن النوم منعقد ابداً في عينيها ، وتمشي مشية القطة ..

وبدا اطلاق الرصاص مساء السبت واستمر الى صباح يوم الاحد ،
وكان صباحاً شديد المطر والظلمة ، ودوت الطلقات الاولى من بعيد
وسمع بيكوف اصواتاً كأنها نقر بطة على صفيحة من التنك ،
فأيقظ الممرضة وسألها :

— ما هذا ؟

ومدت المرأة رأسها كالحية ونظرت من خلال النافذة القائمة :

— لا اعرف . اتريد الدواء ؟

وتعددت الطلقات واقتربت ، وقال بيكوف :

— اظن انها طلقات نارية .. ايقظي من فوقنا ..

لقد دلت له اذن الجندي القديم على نعمات الرصاص .
ومضت الممرضة تتأرجح كأنها تمشي في ريح صرصر عاتية ،
وتغرز شعرها تحت منديلها ، وجلس بيكوف على سرير يصفى الى
الاصوات ، ويصقل شعره ولحيته بيديه المرتجفتين :
... انهم يطلقون الرصاص .. يا للكلاب .. ولكن من هؤلاء ؟
وهبطت الممرضة الدرج وهي تصرخ صراخاً احق :
— الرصاص .. الرصاص .. فوق السقف ..
وقال بيكوف :
— الرصاص .. انه في الهواء .
— كلا .. كلا ..
— اخرسي ، انه تدريب عسكري ، فاطلاق النار ممنوع ..
— كلا .. كلا .. وحق اجدادي ..
وهرعت المرأة الى النافذة ففتحتها ، واكتسحت الاصوات الغرفة ،
وفجأة انفجرت قبيلة ، فاهتزت الواح الزجاج وندنت ، واشتعلت
في نوافذ البيت المقابل انوار ذات الوان .
وجلست المرأة على الارض ورسمت اشارة الصليب وهي تقول :
— حنانك يا رب .. رحمتك يا رب ..
ودخل كيكين يلبس معطفاً وقبعة ، وهو يتعقف ويلتف ويمشي
على رؤوس اصابعه وبدا وجهه في نور الصباح نحاسياً ميتاً .
وهتف به بيكوف :
— ماذا حدث ؟ ويعتوب ؟ اين يعتوب ؟
— خرج — ومتى ؟ والى اين ؟

وخلع كيكين قبعته وقال في صوت يكاد يخونه ، وهو يفرد ذراعيه الموعجتين :

— لقد قلت له : يا ابجور ايفانوفتش ، لاتدخل في هذه القضايا ، فهي لاتليق بك ، لقد خدعونا .. ولكن ..
— ومن الذي خدعنا ؟

— خدعتنا الحكومة .. ولكن يعقوب قال لي : لا يجوز ان نتخلي عن الرفاق .. وانها لدناءة .. انه من مؤسسي جمعية كرونوفو . وفهم بيكوف ، وكأنما اصابته ضربة سوط ، ونزل من سريره وهو يصرخ :

— ثوبي ، هاتي ثوبي ، قوديني الى النافذة ايتها المرأة ..
وتطلعت المرأة الى الشارع من النافذة وقالت :
— اصنع ما بدا لك ، النار تشتعل ، اما انا فذهبة الى البيت ولكنها لم تذهب ، بل انها لم تتحرك من مكانها ، بل انها ركعت على ركبتيها امام النافذة .

ودمدم كيكين وبيكوف يلبس ثوبه :
— حذار .. فقد يخرق الرصاص النافذة .
وقال بيكوف صارماً حازماً :
— كفى كفى ايها الممرض .. ايها الشريك ..
واقتربت الطلقات ، وسمعت صرخة طويلة :
— آه .. آه ..

واغلقت بوابات الدور في شدة ، وتردد صدى فأسين تحطمان الخشب ، وصرخ صوت حاد في غضب :

— اهربوا الى البساتين ..

ورأى بيكوف حصاناً اسود يجري في الشارع وقد ربط رجل
فوق سرجه ، فاصبح الحصان كأنه جمل ذو سنام ، وعرف من مشية
الحصان انه يعرج ، ومرت ثلاثة اشباح تلتصق بالحيطان ، واحداً
بعد واحد ، وجر آخرها خشبة تضرب احجار الرصيف وتعلق بجوانبها
وقال بيكوف :

— اللصوص .. اللصوص ..

واحسن بفراغ يثقل نفسه ، بفراغ تضيع فيه الاصوات جميعاً ،
وتغرق فيه الافكار جميعاً .. ودوت رصاصة وارتجفت الاوراق
اليابسة على الاشجار ، وقال بيكوف :

— شظايا قنبلة ..

وسمع صوت كيكين الحلي :

— يجب ان تبتعد عن النافذة ..

ودفعه من كتفه وهو يقول :

— اذن فقد نشبت الثورة ..

— نعم لقد ثار العمال يا ابجور ايفانوفتش .

— اويعقوب منهم ؟

— انه من انصار كونونوفو ...

ومد بيكوف يده من النافذة وصرخ به :

— اذهب ... اذهب وهاته ... يجب ان يعود حالا . لماذا

تسكت ايها النذل ... أتخفيه عني ؟

وتمم كيكين كالمذنب :

— لقد قال لك يعقوب قولاً صريحاً ، ستكون الثورة مسلحة ..

— اذهب وهاته .. لو مات جعلت حياتك مستحيلة ..

واصطكت اسنان بيكوف وخيل اليه ان لحينه ستسقط عما قريب ، ووقف منتصباً كأنه جندي في ساحة القتال ، فارع الطول مستقيم القناة ، قرب البقعة الغامضة من النافذة ، جاحظ العينين ، مختلج الساقين ، يتطاير ثوبه ويخفق ، وينحدر عن كتفيه ..
ورددت الممرضة :

— انا ذاهبة الى بيتي

وسقط بيكوف في مقعده ثقيل واستمر ينظر الى الشارع الذي غمره ضباب الفجر .. الطلقات اصبحت اقل عدداً ، وضربات الفأس اكثر بعداً ، وسقط شيء ما على الرصيف او امام البوابة فحطم الالواح ... وشرأت له اسلاك الهاتف اكثر امتداداً واضطراباً ، وامتلاً الشارع سريعاً بضجة صماء من ركض وصرير خشب ، ودوى صوت مألوف في غضب :

— ارفعوا البوابة .. في الباحة براميل .. دحرجوها وهاتوها ..
وفطن بيكوف :

— البراميل في ساحة داري ..

وفي الشارع تحت نوافذه كانوا يصرخون :

— اربطوا الاسلاك بأعمدة المصابيح .. مددوها عبر الشارع ،

اكسروا مصراعي الباب ... رجلي ... رجلي يا شيطان ...

وقال بيكوف في صوت عال :

— انه صوت يعقوب .. صوت يعقوب ..

لم يرغب في التفكير فيما يصنعه يعقوب ، ومع ذلك فلم يكف
عن الدممة ، وصدره معتمد على حافة النافذة :

— انه يدافع عن نفسه .. انه يقاوم ..

والممرضة تركض من زاوية الى زاوية وتنتحب :

— يا رب .. يا رب .. الاشقياء .. اللصوص ..

وصرخ بها بيكوف :

— اجلسي واخرسي والا سحقتك ..

وتناول العصا التي يضرب بها السقف عند دعوة كيكين وهزها
في وجه الممرضة متوعداً .

وظلت اسنانه تصطك ، ودخلت شعرات من شاربيه فمه فصقل
شاربيه وصقل لحيته ، ولكنه لم يستطع سلطاناً على فكيه ، وملاً
نفسه صمت داخلي مخيف ، واحس بفراغ كبير عميق ، رغم ما كان
في الشارع من ضجة تشور حيناً بعد حين ، ومن صرخات وصرير
اخشاب ، وطلقات نارية بعيدة ..

وعند اللبابة اصدر صوت من الاصوات امراً :

— ارم الكاهن .

واخيراً بدا الصباح ، وارتسمت في الضباب اشباح واضحة .. لم
يكونوا اكثر من مئة ثائر يتكومون على الجانب الايسر من دار
بيكوف ، كانوا يقطعون الطريق بأعمدة الهاتف التي يجرونها من
اسلاكها كما يجز السلور من شاربه .. وجاءوا من باحة المنزل المجاور
بأكداس من العلف المضغوط ، واخرجوا منها عجلة ، وجعلوا من
كل اولئك ، وهم يلهثون تعباً ، حصناً منيعاً .. وتطلع الناس من

وراء النوافذ يرمقون هذه الاستعدادات بعيون عمياء ..

ومن بعيد دوى صوت بوق يدعو الجنود الى الاجتماع وصرخ
الصوت الواطىء :

— انتبهوا ..

وسقط شيء ما على احجار الرصيف فدوى ثم تحطم ، وقال
بيكوف فى صوت عال يوجه كلامه الى الممرضة كأنها هي التي
سألته رأيه :

— اتسمعين ؟ انهم يهدمون ويكسرون ..

وجعل يرتجف من البرد ، ويجذب ثوبه الى صدره ، واطل من
النافذة ، فرأى يعقوب يركض وهو يحمل معولا الى البوابة ومن
ورائه عشرة رجال يتسلحون بالبنادق وبالقووس ، ويحمل واحد
منهم عريش العجلة ، وجعلوا جميعاً يدفعون الباب ويحطمونه ،
وارتقى يعقوب كلهر هذا الباب ، ثم نزل الى الباحة وصرخ :

— ارفعوا دفعتي الباب ، خذوا البراميل .

كل هذا كان كالحلم لا يصدق ، كل هذا كان يراه بيكوف
بعينه ثم لا يصدق عينيه .

وايقظته من حلمه زعقات الممرضة المجنونة :

— آه ... اللصوص ... اللصوص ...

وانفتح الباب واكتسح الرجال الباحة .

وصرخ بيكوف وقد انفق على صراخه هذا كل ما بقي له من قوة :

— قفوا ايها الالباسة ... قفوا ... اطردهم يا يعقوب .

ورأى وجه يعقوب يتطلع اليه مستديراً كأنه القرص ومعه ينادي :

— حذعونا يا عماد ... وهم الان يقتلوننا ...

وسمع صوت الاحدب الشاكي يصيح :

— ابتعد عن النافذة يا ابجور ايفانوفتش ...

وارتفع مصراع الباب الايمن ثم ترنح ثم سقط في الباحة مدوياً ،
وامسك به بعض الزجال وجروه الى الشارع ، وبقي منهم من بقي
يعالجون المصراع الثاني لينتزعه ، ويدحرجون البراميل التي كانت
تدعبل وتدعبل بينها الاحدب الصغير .

وامسك بيكوف وهو يشتم ويلعن باصيص للأزهار ورماد في
الباحة على الناس ، وسقط الاصيص بعيداً عنهم ، ورآه بيكوف ،
ومع ذلك فقد صرخ بالمرضة :

— هاتي أواني الازهار ... هاتي الكراسي ... هاتي كل ما
تقع عليه يدك ..

ورن في صوته تهديد جعل المرأة الخائفة تنتصب وتسرع في
صمت تحمل اليه الاواني ، وتدفع الكراسي برجليها ويديها ، وجعل
بيكوف يرمي الناس من النافذة ، بكل ما بقي فيه من العزم ، ويلقي
عليهم كل ما تصل اليه يده ، وهو يصرخ ويزعق ويزأر كالوحش
الضاري :

— يعقوب سأقتلك هذه المرة ... خذ ... كيكين يا ابليس

اللعين ... خذ ...

وأطلق واحد رصاصة فحطمت الزجاج واقتلعت قطعة من
الجص في السقف فسقطت ، وجلست الممرضة على الارض تصرخ وهي
ساجدة ، والتفت اليها بيكوف ينتهرها :

— أنت كذابة ... انت لم تموتي ... هيا هاتي يا ساقطة ...
وفي الوقت نفسه دوت طلقات من النار وصاح صوت رفيع عند البوابة:
— طوقونا ... طوقونا ...

ورأى بيكوف ابن اخيه يزحف على الارض وهو يجر ساقه
جرأ ، ورأى الرجل ذا اللحية يترك العريش ويسقط الى وراء ،
فيضرب برأسه الباب وتسقط قبعته ، وبرز عند البوابة من قلب
الضباب جنود يحنون ظهورهم ، ويصوبون حراهم ويصرخون :
— سلم ... سلم ...

وجعل بعضهم يطلق النار على الهاربين .
وانفجر بيكوف يضحك ضحكة وحشية مرعبة ، ومد يديه الى
النافذة ، وجعل يشير باصابعه ، ويضرب الارض بقدميه ، ويصرخ
ويزعق :

— اطعنوا هذا .. هذا الذي يزحف .. اطعنوه .. مزقوه ..
والاحدب ... هذا الذي يحتبى وراء البرميل ... الاحدب ...
وفتحت الممرضة نافذة اخرى على مصراعيها وجعلت تصيح :
— اطعنوهم ... اطعنوهم ... اطردهم ...

DATE DUE



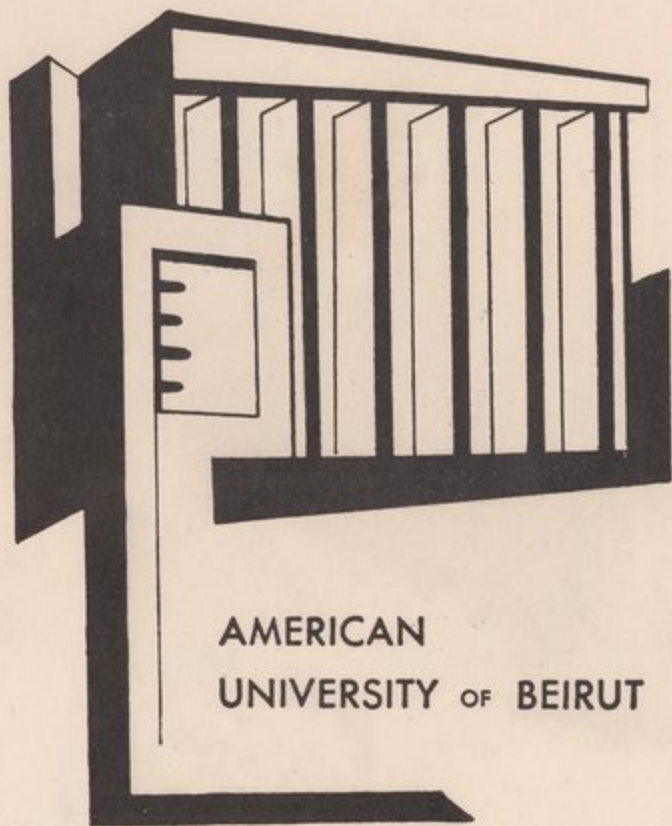
المسوحى، عبد المعين

حادث فوق العادة: قصص

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032611



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

891.73

E6694A